

ثالث غزو إذا العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



علاوفة الامير شكيب أرسلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا إليك نفرع من مداحص القدم : وبك نستعصم في ما يجري به القلم .
ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك باري النسم ومفيض النعم ، وباسط
الوجود على العدم ، شهادة نعدّها للنجاة اذا اشتدت الغم ، وبتقى بها النار ذات الضرم .
ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وسلطان
من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالقدم ، المبعوث بالآيات
الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه
حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم ، الذين أشرقت شمسهم في الشرق
والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيراً
وبعد فانه مما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحدق
قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموّها ، ورقى الأقوم
وسموّها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة
بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكّرة لأوليّاتها ومبادئها ، مقيدة
لوقائعها مسلسلة لانسابها حاشدة لاحسابها خازنة لآدابها ، مما لا يقوم به الا علم
التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف . وانه
لا جدال في كون الأمة العربية التي تتحفز لتنباع وتستوفز لتمدّ طائل الباع ، لم تكن
لتحدث نفسها بالنهوض الذي جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذي سيرته شغل
خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة المالك فيما غير هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت
من تاريخها تلك الصفحات المتلالية فجعلت الحاضر منها ينجبل أن يقصر عن شأو
الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً في الأوائل وهو عبد في الأواخر ، فكان اذاً تاريخ
العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه

من آمال. ولعمري ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرت له أعواد المنابر، وسبقت فيه تأليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولمت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجاً ولو نضدت لكانت أبراجا، لاتزال فيه نواقص بادية العوار ومعالم طامسة الآثار. ومظان متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنها، وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينثلوا من كنائنها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أجد ماضيهم وألمع ما لمت فيه مواضعهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوربية خارجا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطالية وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم حقبا طويلة، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أئيرة. فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولاً، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلاً. والحال انه من أقسى فتوحاتهم مجداً وأوعس مغازيهم غوراً ونجداً، وأدل أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء المزايم. وما كان غالباً على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائف واستصغار العظائم. فلهمذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلاً أسميته « الخبيثة المنسية في مقام العرب بجبال الالب والبلاد الافرنسية » وجمعت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم « الحلة السندسية في الرحلة الاندلسية » وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أتوج هذا الكتاب باسم الملك العربي العظيم منزعاً ونسباً، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهرراً وأماً وأباً، الذي وقف نفسه الأبية على خدمة أمته العربية عاملاً لنهضتها بعد ربضتها، ومجاهداً في ربوتها بعد كبوتها فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه. وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين المهامين

العاقلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهما فيه باذن الله التمكين والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً لتأييد هذه الأمة وصيانة دمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُداً، وما ذلك على الله بعزيز جنيث ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢
شكيب أرسلان

مأخوذ

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبنى معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته، وقبل أن يوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان في الحياة إذ أننا لا نزال نعد فيصلاً حياً في القلوب والخواطر وان غاب بوجهه الكريم عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بنجر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه إذ كان مؤخرأ في برن ، عنه وعن مباحثه وعمما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سمعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها . وكان مهتما بهذا الموضوع مرتاحا الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحا الى نشر كل أثر عربي . وما كان فيصل رحمه الله الا رمزاً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فاذا كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تمسحى آثاره . ولنا نعم العزاء في جلالة ولده المعظم الملك غازي الأول الذي نرتقب من هلاله بدرأ نامياً ، ونرجو من كرم الحق تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين
جنيث ١٤ جادى الثانية ١٣٥٢
شكيب أرسلان

كلمة بين يدي رحلتى

لتتبع الآثار العربية في الأقطار الغربية

ليس بعجيب أن يكون مثلى مغرماً بالأندلس وآثار العرب فيها وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى هممهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابه . ولعمري ان آثار العرب فى الأندلس هى غرة شادخة وهمة شاذخة فى تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً انها من أنفس ما أثمره العرب ، بل من أنفس ما أثمره البشر فى الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربى وينقب عنها ويشد الرحال اليها ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هى الآية الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضى وعلى ما قدرنا أن نعمله فى سالف الحقب فحسب ، بل هى الحجة الملمزة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا اذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام . وهى أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل فى الأعصر المستأنفة ما عملناه فى الأعصر السالفة اذا تركنا الأجانب وشأننا

كنت اذاً منذ ريمان شبابى وغضاضة اهابى مولماً بحضارة الأندلس العربية وآثارها، مشغوفاً بتاريخها وأخبارها حتى أتى منذ أربع وثلاثين سنة وهى مدة يضح أن تسمى دهرأ نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان السهامه بآخر بنى سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ الأندلس استخلصته من السكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قدام البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون فى عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له في النواحي رنة نواح، وسال له من المآقي مدمع سفّاح، وتجددت تذكارات أشع
وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه أنهم كانوا يتلونّه المرة بعد المرة شفاء لما
صدورهم، أشبه بالثكلى التي لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم خدودها وتله
آثار مفقودها، وكانت بازدياد النهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرئب
الأندلس الأعناق وتتحاب على ذكرها الشفاء، فأعدت من سنين قلائل طبع الر
الذكورة «آخر بنى سراج» مع ذيلها، وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرنا
عثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء د
بنى نصر» لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يترجح كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه
ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاه
بالعيان، أو من روى عن من شاهدها، وأظن المقرئ عند ما كتب نفع الطيب
مطلعاً على ذلك الكتاب، لأنى رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملاً كثيرة رأ
في النسخ بحروفها. نعم أعدت طبع كتابى ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الك
الذى عثرت عليه في مونيخ غفلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية
السلطان أبى الحسن علي بن الأحمر والد أبى عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس ال
سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملكة ايزابلا، وكان طبعى لهذه الكتب منذ ثم
سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم ينقع غلتي ولم يشف ما بى من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفة
بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبار
واقصص آثارها ووفاء بواجب ازديارها. وما زلت أحدث نفسى برحلة أقوم بها
تلك الديار التي ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكّار وتعوقني العوائق عنها وتعترضني الأشع
من دونها وأنا أخشى أن توافيني المنية قبل تحقيق هذه الأمنية الى أن يسر الله ه
الرحلة منذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالآجال. وكنت مو

النفس على السفر الى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ فجدت شؤون وطرات طواريء اقتضت أن تراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت على بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله ، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون على بتأخير الرحلة الى الشتاء التالي أو الى الربيع الذي وراءه ذهابا الى أن السياحة في أسبانية لا تلائم في أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التي أنا قاصدها . فلم يكن ذلك ليغير من نيتي ولا ليرخي من مشدود طيتي ، لأنني لم أبرح في هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمني بها النفس ، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نعتمد على التأخير والتسويق ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف ، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً ، ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الاصفاع الإسكندنافية في الشمال والبلاد الأسبانية في الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لثلاثنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التي نحن إليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لثلاثنا أن يتأخر عن السفر إليها ونحن لا نزال انضاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الجلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التي حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغريبة كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التي كانت للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم في جنوبها دولة وصولاً ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجية بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التي خفضوا دعائمها ونقضوا صرائرها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وما أنا إذا أحدث عن سياحتي :

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس فوصلت الى تلك العاصمة ليلاً . وكان قد عرف بقدمي شابان من نخبة أدباء المغاربة السيد احمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فـانزلت من القطار حتى وجدتهما أُمى في المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليان بالاس في شارع برون « Boulevard Brune » وتحدثت اليهما في موضوع رحلتي وكان ذلك قبل ميماد عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافيانى الى مجريط ليرافقانى في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مررتُ على بالفعل إذ أنا في فندق رومة في عاصمة الأسبانيول . وكان في اليوم التالي من وصولي الى باريس أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم في المطعم العربي الذي بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد بلافريج الى مكتبة غوتتر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشترت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أنى لدى نزولى في أورليان بالاس وجدت صديق الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيراً لأن آخر المهد بيننا كان في الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتي هناك رحى بك الذى كان والياً لأزمير أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقى في تركيا وهو من أعز إخوانى واخوان ابن عمى الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لي بغير ميماد فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدى بلقائهما وذهبنا الى المطعم العربي فأوصينا على مطاعم مغربية، وسمعنا من شجى ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألحان الأندلسية، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام بباريز

ركبت القطار الحديدي الى تولوز « طلويزة » وجاء لوداعي الى المحطة جمهور من شبان العرب يباريز وهتفوا في المحطة : فليحي العرب

ووصلت الى طلويزة بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت في فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس ^(١) » وفي اليوم التالي قصدت قرقشونة ^(٢) التي فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلمة وصعدت الى الأسوار وجولت في تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت في المساء الى طلويزة، والمسافة بالقطار بين هاتين البلديتين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلويزة وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كوني بدأت رحلتي من فرنسة . ولما كان غرضي من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أيها كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذي دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى على أن أبدأ بجبل طارق فالجزيرة الخضراء فشريش فاشبيلية فقرطبة فطليطلة . وهلم جراً نحو الشمال، وأن أنتهي بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبغي أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن في هذه الأيام وطني سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذي سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهي طريق المغرب . ولكن الغربة التي تطوحننا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شماليها لا من جنوبيها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان المقصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة أوروبا بدون تقيد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأماكن بالعين بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى جميع ما قيل ان أقدم العرب وطئته من هذه البلدان في حملتهم الأولى على الغرب ، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلويزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست هذه فقط بل جميع البلاد التي احتلوها من جنوبي فرنسا وما صاقب ذلك من شمالي ايطالية، وما نواح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث : فرنسا وايطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستاتزة من ألمانيا

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا» وايطاليا وجزائر البحر المتوسط» هو في الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التي نحن بسبيلها لأنها هي خاتمة مطاف العرب في أوروبا وفاتحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وتاريخ حملة العرب على أوروبا من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغي أن يكون آخراً، فان هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول . باعتبار ترتيب سياحتى التي بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخراً ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، في فرنسا وفي شمالي ايطالية وقلب سويسرة . وهو أول تأليف عربي مستقل في هذا الموضوع

طلوزة TOULOUSE

كانت طلوزة في قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا في أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين (١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلوزة عاصمة ماوك القوط ، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أ كيتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كونتية مستقلة واشتهر من أمراءها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح (٢) . ففي القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أ كيتانية ، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كونتية طلوزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسة كانت طلوزة من المدن التي قصادوها لسكنهم لم يتمكنوا منها كما عسكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على طلوزة في أيام امارة السمع بن مالك الخولاني على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسة

(١) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Valees Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفتح العليب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتولقات ، وفي صبح الأعشى يذكر الشبونقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الأفرنجية معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

CARCASSONNE قرقشونة

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قسبان: الأول الذي فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثاني وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسا فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقشونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقشونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسا ، أى القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر^(١) . وأما تاريخ العرب فيها فالمشهور أنهم افتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأنها بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على ما استقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبى فرنسا

مبدأ غارات العرب على فرنسا

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الفرنسى الشهير المسيو «رينو»^(٢) الذى عاش فى الثلاثين الأولين من القرن الماضى ، وكتابه يسمى

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسا بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أنقذ أوروبا فى وقعة « يواتيه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبا كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا نقدر أن نحصى ما نجاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطلينان فى هذا الموضوع ، ولا نجدلزو ما لهذا الاستقصاء بعد أن قرروه فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك توارينخنا العربية . وانما

Invasion Des Sarrazins En France et De France
en Savoie , en Piémont et dans La Suisse (١)

Pendant les huitième, neuvième et dixième siècles de notre ère .
D'après Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles -
lettres) , conservateur - adjoint des manuscrits orientaux de la
bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « سارازين » التى قيل انها أطلقت على العرب
لكونها غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « سارازين » وقيل بل
هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka
أى شرقى أو « شراقة » أى شرقين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن
ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أورو والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد في هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب المسيورينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشد المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية . وإنك لتجده لا يروي رواية ولا خبراً إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الروايات أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب التي فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لاسيما إذا كانت من التواريخ التي وضعت في عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد من كتب الإفرنجية فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أن اعتمادنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطاليا ومن أهالي سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيلمر (١) سنأخذ بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيورينو وسنقابل جميع رواياتهم :
لدينا من التواريخ العربية الشهيرة
قال المسيورينو في مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديد

Der Einfall der Sarazenen in der Schwæiz um die mitte des x . (١)
Yahrhenderts , Von Dr

Ferdinand Keller

Mitteilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيلمر

من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسا وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا ؟ وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وقعت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان المغيرون كلهم من الغرب أم كانوا من أمم شتى ؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً ؟ وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا ؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصددها ويستنبط منها نتائج عامة ^(١) ولا شك في أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وان الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسا هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففي سنة ٧١٢ عند ما بدأت هذه الحملات على فرنسا كانت هذه البلاد مقسمة بين افرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » ^(٢) و « اوسترازيا » ^(٣)

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N . C . F . Paris 1810; et de « l'histoire générale du moyen - âge ,, Par M . Desmichels, Paris 1831, T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie في شرق فرنسا قاعدتها Metz

و « بورغونيا »^(١) وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « ا كيتانية »^(٢) من نهر اللوار الى جبال البيرانه ، وبين بقايا القوط الغربيين^(٣) الذين كان بقي في أيديهم قسم من مقاطعة « لانغدوق »^(٤) وقسم من مقاطعة « بروفانس »^(٥) وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتأنا إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد. ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بين » ابن « شارل مارثل » وفي أيام شارلمان بن بين . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الوراء ، ثم عاد جو فرنسا فاربدا ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire » وجدد العرب غاراتهم على فرنسا أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن موسى بن نصير تاريخاً ألفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروي أصحابها روايات شفوية

(١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرقي فرنسا قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم

صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسا الجبل ولم تخضع تماماً للتاج الا سنة ١٤٧٧

(٢) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم

(٣) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها

وسنة ٤١٨ جعلوا طلوزة قاعدة ملكهم

(٤) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسا قاعدتها طلوزة أوتولوز

(٥) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكناد . ثم استلحقها الفرنسيين في زمان

كارلس الثامن وهي الآن تشتمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكلوز

عن أفواه الرواة (١) وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور، دور الحماسة والمجد، لا يفكرون إلا في اعلاء شأن دينهم . فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب في أبودية الخيال

إذا حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسا كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي، كما ان منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلاً ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسا الداخلية وما جاورها، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة، فقد ذكر المسعودي انه في نواحي سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسا من زمن كلوفيس إلى ذلك العهد (٢) وكانت

(١) يقول رينو في حاشية هذه الجملة مايلي : ولا نقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرتين » لأبي القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع ، فان هذا التاريخ مفتعل وضعه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني (٢) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة : « ان اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا البحث قد تماورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودي التي في الخزنة الملوكية (في باريس) وأما اعتمادنا على نسخة كانت تخص الميوس شوان » اه

قلت : وجدنا في مروج الذهب للمسعودي طبعة مصر التي طبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلي : وجدت في كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت، في عهده : يأمر المؤمنين إن أول ملوك افرنجة « قلووزيه » وكان مجوسياً فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولي بعده ابنه لذريق . ثم ولي بعده قرمان بن دفشرت . ثم ولي بعده ابنه تتين . ثم ولي بعده نازلة بن تتين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد توافق أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم ،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لمملكة فرنسا وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دورمير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسا هذا الذي قال المسعودى انه عثر على نسخة منه في مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذي رواه منه المسعودى (١)

ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التي كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المؤلفين عندهم وضع

وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فلك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذي أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولي بعده ابنه نازلة وهو الذي تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان . وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولي بعده ابنه لذريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجية فأقام في ملكهم ثمانى سنين ، وهو الذي صالح الهجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولي بعده نازلة بن بفربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ثم ولي بعده لذريق بن نازلة وهو ملك افرنجية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نرى فينا من خبره اه

قلت : في الأسماء تحريف كثير عن الأصل ، فأما « قلووزيه » فهو كلوفيس ، هذا ظاهر . وأما أن له ولداً اسمه « لذريق » فهذا الاسم بدوت شك هو هنا خطأ من النساخ ، إذ أنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له لذريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodomir ولعل العرب لفظوها « قلدومير » فجاء النساخ للكتاب وقلبوها الى لذريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلدبرت » Childebert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تيرى » Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذي كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو (كلوتير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتره » أو « كلاتره » ولم يحسنوا قراءتها وقلبوها راءها زايماً فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودى عن مؤلف هذا الكتاب انه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وانه من جيرون ، وأنه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التي هي اليوم من مدن ولاية البيرانه المرقية من فرنسا . فزهرة تحريف عن « سيريه » أو « سره »

(١) غير موجود هذا التاريخ بالفرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعداً يجعلها مجهولة تماماً (١)

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضربها الفاتحون . إلا أن العرب فى إسبانية وفرنسة لم يكونوا الى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على إسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على إسبانية » الذى ظهر بالاسبانيولية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذى كان لديه كتب عربية كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة إلا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غير ماهر فى التمحيص (٢) . وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى إيضاح

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الأفرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » الى « دفسرت » إلا من قبيل تحريف ابن رشد الى « افرويس »
(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالفرنسية إحداهما ترجمة ماخضة بقلم المسيو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم المسيو « دومارليس » De Marlés قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيا وستنقل فى بعض الأماكن عنها . ولكن كتاب كوند هذا — والاسبانيول يقولون له « كوندى » — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أنهى عليه بالتخطئة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودرى . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانية أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانة الاسكوريال وكان معظم همه تخطيط « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masden

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد وانك لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوتد .

اننا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعرضنا فى طريقنا لكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعد مما وصل اليه « موراتورى »^(١) والدون « بوكه »^(٢)

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فاننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فاننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنابع التى لم نقدر أن نصل اليها فقد نهنا عليها وأشارنا الى أما كتبها وذلك كبعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها ولو كننا لم نظفر بها

(١) Muratori واسمه لودوفيكو اتونيو مؤرخ آثارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتينى مؤرخ بمهارة مشهور ولد فى (آميين)

Amiens بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهي لفظة لم يجزم الى الآن في وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أي المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولاً الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية فسموا من أجل هذا مغاربة . وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسا ويحتاحون شمالي ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصائب حكمة في صقلية وجنوبي ايطالية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتنا الاشارة اليه

ثم انه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلاً أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يحتاحون تلك الأرض ، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جراً . فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم نتعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتي هي أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصص المولعين بأخبار الحماسة والمغربين بأحاديث المجد والرئاسة

ففي القصص التي ترويها الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخي ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين « السارازين » بلفظة « بايين » Payens أي وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التي حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسوا المسلمين ! ولهذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي

من عمل غيرهم وليسوا منها في قبيل ولا دين
وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى
أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التي
جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام
شارلمان غزوات جميع الافرنج في بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن
المجادی عشر أى الزمن الذى استصرخ فيه مسالمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك
المرابطين . فتأمل

ومن هذا النمط تعتمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجداد ممدوحهم
فضل تحرير البلاد وطرد الأعداء . وذلك مثل قصيدة غيليوم ذى الانف
الأصلم الذى ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من
مدن فرنسة

ثم انه كان المجرار قد جاءوا من شرقى أوربة وعاثوا في نواحي فرنسة ، فاختلط على
الناس ما عاثه المجرار بما عاثه العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون
المجرار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » وممن قال بذلك الأب
« لو كوانت » P. Lecoite مؤلف التاريخ الاكليريكى في فرنسة والدون
« ماييون » Mabillon والأب « باجى » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette
والدون « بوكه » Bouquet والحقيقة انه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها
الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة في ذلك العصر . وقد يقال
ان هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس « دنيس » Saint - Denis الشهيرة
التي هي الحجة الكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن
الثانى عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت .
ولم يزل التاريخ لم يمحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسئلة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقي جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « بيمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان ترويس » الى بحيرة « كونستانزة » ومن نهر الرون وجبل « جورا » الى سهول جبل « فرات » و « لومبارديه » ومما لا جدال فيه أن تذكّار الغزوات العربية في هذه الديار لم يكن بدون تأثير في الحملات الصليبية وفي هذه الحركة العامة التي اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الأنجيل في وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين في هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت في كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فإن كنا قد قدرنا أن نلقى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البيرانه ^(١) الى أن طردهم « بين » القصير من « ناربون » وكل « اللانغدوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بغارات العرب برأً وبحراً على « پروفانس » فى نواحي ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفينى » و « سافواى » و « بيمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه
ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسا الى عهد اخراجهم من أربونة واللائفدوق سنة ٧٥٩ مسيحية :
لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص)
الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العاصم
سيغنو لراية النبي . فانه ماضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بجمرانه على العراق
وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنטיكي . ثم من افريقية
اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسا وصارت
جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيحون
وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ اسبانية للقرى وقال ان منه مخطوطاً
في الخزانة الملكية وانه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألفه صاحبه في أوائل القرن السابع
عشر ونقل عن كتب لم تصل إلينا . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسبانيولى لم يطالع على هذا
الكتاب . اهـ

قلت : هذا الكتاب هو « نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد القرى المغربى التامسانى المالسكى الأشعري رحمه الله .
وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك في
الشام حيث كان قد ألقى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر
في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقاً من وجوه عديدة : أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام . ثانياً
ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثاً ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا
بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعاً ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسبواها باسمها الشبهها بها في القصر
والنهر والدوح والزهرة الخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي

مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي وهو مروى عن أبي الربيع العتكي وقتيبة
ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء

كان من الحدود الطبيعية التي للكورة الارضية
وكان مركز هذه السلطنة التي لانهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة
وكانت الرئاسة الروحية والدينية في الخلفاء بني أمية . وكان الخليفة يومئذ هو
الوليد^(١)

وكان العرب قد وجدوا في افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر
اشتهرت بصعوبة المراس وبجب الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجنيين والرومانيين من
دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان هؤلاء البربر
لسن خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي^(٢)
فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية^(٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ
مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَزْبَيْنِ
الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ (وعلى رواية
أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ
وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ
أَنْ لَا أَهْلِكَكُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ
بِيضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى
يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » اهـ

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان

(٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة تقلا عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن

يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد

ترجم الى الافرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت

إشراف « بول كازانوف » من أساتيد مدرسة فرنسة Collège de France وهو جزآن

(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن^(١) فهذا التشابه في اللغة كان عاملا كبيرا في استقرار دولة العرب في افريقية واعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا في البداوة وسكنى الوبر وشظف العيش وطالب النجعة وحب القتال وشن الغارات

خبير موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في افريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى ابن نصير من أهل الحجاز، ولد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالجزيرة حبا في نشر عقيدة التوحيد^(٢) . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همة الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وبتاريخ لوبو Lebeau الافرنسي الذي أنف تاريخ دولة بيزنطية Histoire du Bas - empire (١) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وبتاريخ أهالي افريقية الشمالية الذي وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتابية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك (٢) ولد موسى بن نصير اللخمي بالولاء المسكني بأبي عبدالرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن خلدون انه كان عاقلا كريما شجاعا نقيما وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك وهو الذى أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاة طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد الكاملة وكانوا أسلوا وحنن اسلامهم وترك عنهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بنزوا الأندلس . وسياتى خبير موسى وطارق وغزواتهما مفصلا في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانيا وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق^(١) . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»^(٢) وقسم من «اللانغدوق»^(٣) من (بروفنس)^(٤) وكانت في اسبانية حواضر حافلة بالمران زاهرة، إلا أن روح الانتقاض كان كامناً في النفوس، وفساد الاخلاق كان قد تنفل في جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب النمام، فضلاء عما يمتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر

فجرب موسى التجربة الاولى بيمض برابر أجازهم الى طريفة^(٥) فمأثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاوماً فاشتد بذلك عزم موسى . وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue روبريقي والعرب تقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة فغضب عليه غبطة مالك البلاد وسدل عينيه نثار لذريق على غبطة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه . فانفق أولاد غبطة مع الكونت يايان والى سبتة واستنجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجوعه بالفرج من شريش كما سيأتي الكلام عليه في الأجزاء التالية . وقتل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع وإنما وجد السلون فرسه الأبيض وهذه رواية « أخبار جموعة »

(٢) Roussillon هي المقاطعة المسماة بالبيرانة الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (برينيان) Perpignan

(٣) Languedoc هي المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوب فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد القار والنوكالوز وقد تقدم التعريف بها

(٥) Turifu والعرب يقولون طريف مرسى في جنوب الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمي كذلك باسم أبي زرعة طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتي الكلام عليه في الجزء الثالث

به الى الخليفة (١) في دمشق . وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة وماتقة وطليلة . وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلتقي الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أضخم منه عسكريه . وطارق بن زياد (٢) هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق .

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لتريق لم يوجد بعد المعركة لاجياً ولا ميتاً .
(٢) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفحوم بن بزغاسن بن ولهاصن بن يطومت بن نفزاو ، فهو نفزي ، ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير ، وتال : في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورفائهم الذين ترك موسى عنده وكان قد أخذهم حسان (أي حسان بن النعمان أمير افريقية لعهد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات ، اه وسندكر عن طارق ما هو أوسع من هذا في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكريه من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو في حاشية كتابه أن راوى هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه « فتح المسلمين للأندلس » قال رينو : وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية لانه من ذراري ملوك القوط باسبانية اه

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبة » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذي انتزع لتريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظمة من عمها أرطباس ، فتزوجها في الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عمها عنها وأنصفها بما كان لها قبله ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصاً . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الاصل القرطبي المولد والدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ،
والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطعاً خصيباً
فياضاً بالخيرات فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . فاجتمعت اذاً في هذا الفتح
مقاصد الدنيا والآخرة وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب . ومما لانزع فيه أنه
قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في
اسبانية وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويعدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل
العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم^(١) وينفسون من خنقهم

أما في نفع الطيب فيقول انها سارة بنت « المند » كبير أولاد غيطشة ، بسط عمها ارطباش يده
على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصيناً في اشبيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام
حتى نزلت بمسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق ، فأنت خسرهما وشكت
ظلامتها من عمها واحتجت بالمهد المنعقد لابيها واخوته على الخليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه
وأعجبه صورته وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله على افرنجية بانسانها من عمها
ارطباش ، فأفند لها السكناج بذلك الى عامله بالأندلس ابن الحظار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها
الخليفة عيسى بن مزاحم طابقي بها في الشام . ثم قدم بها الى الأندلس وولد له منها ولداه ابراهيم
واسحاق فأدركا الشرف المؤثر والرئاسة باشبيلية . انتهى ملخصاً

(١) ذكر دوزى R. Doyy المستشرق الهولاندى الشهير في الجزء الثمانى من تاريخه لدولة
المسلمين في اسبانية علاك كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سندكرها في مكانها ، الا اذا نجعل
منها هسنا بقضية اليهود التي قد أشار اليها رينو في كتابه . فقال دوزى : ان رجال الدين
الكاثوليكى كانوا يرهقون اليهود عسراً ويالقون في إيذائهم . قال المؤرخ الافرنسى المشهور
ميشله Michelet كان الناس في الفرون الوسطى كلما سألوا : ما ذا هذا العالم الذى يلغى أن يكون
المثل الاعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه انقلب جميعاً ؟ أجابهم الكنيسة : « لان هذا
من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون وافرين »

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك « سيسبوت » Sisebut وقرر اعطاء
اليهود مهلة سنة ليتصرفوا فان لم يتصرفوا في خلال تلك السنة نفوا الى خارج اسبانية وضبطت
أملآكهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فتصرف منهم ثمانون ألفاً من مجرد الرعب . ولكن المنتصرين
كما لا يخفى لبثوا يخنقون أولادهم سرا ويدينون بدين موسى . فقرر بجمع الاساقفة الرابع المنعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ
بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر^(١) ومعه واحد من
أصحاب محمد عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة^(٢) . وقد اتحى موسى طريقاً

في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنشئتهم في النصرانية . ثم في المجمع
السادس في طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن ببيعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات
المجامع الاسقفية بحق اليهود . وبرغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر
المسيحيون يعذبونهم نحو من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اصطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة
يهود البربر في افريقية ، ووعدهم هؤلاء بالاجازة الى الاندلس لاجل نجاتهم . وكان ذلك في زمن
الملك « اجيكا » Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر
قرروا استعباد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود
بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً ، وقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا
في النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار
عبداً من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ

فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من
الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يارسوا شعائر دينهم فنشقوا نسيم الفرج ، فلذلك كانوا
هم والارقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصاً

(١) جاء في نفع الطيب تقلا عن الرازي أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس في رجب سنة
٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى في عشرة آلاف

(٢) جاء في النفع : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه
المنيذر . قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي صلى الله عليه وسلم) ثلاثة :
الامير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل ان ثالثهم انما
هو حش الصنعاني ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها
بقول موسى . وأهل سرقسطة يزعمون أن حش مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم
مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة
بأبي عبد الرحمن الجيلي الانصاري وخمسهم بعضهم بحيان أبي جبلة مولى بني عبد الدار كان في ديوان
مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاة طارق وفتح بلدانا أخرى مثل ماردة^(١) وسرقسطة^(٢) وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزاهم موسى بن نصير وانتهى معه الى الحصن من حصون المدو يقال له قرقشونة (هي حصن Caracosse في جنوبي فرنسا) اه . وقال ابن الأبار في التكملة : حيوة بن رجاء التميمي ، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جملة الناجين . قاله ابن بشكوال . وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام : وحش بن عبد الله السعدي - صنعاء الشام - سمع فضالة بن عبيد ، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى السامري . قال ابن الفرضي عماده في المصريين ، وهو تابعي كبير ثقة ، ودخل الأندلس . قال : وهو وحش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن قيسان بن نعلبة بن عبد الله بن ناهر السبأى وهو السعدي يكنى أبا رشيد (بفتح الياء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد فتح علي ، وغزا المغرب مع ربيعة ابن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (الى أن يقول) ومات بآفريقية وولده بمصر . وقيل مات بمصر . وقيل بسرقسطة ، وقبره بها معروف ، كل ذلك عن ابن الفرضي . اه . وأما الميتر السجاني فقد جاء في الفتح أن ابن حبيب لم ينسبه وإنما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة ، وقال انه الميتر الآفريقي . وروى عنه أبو عبد الرحمن الجبلي . قال : حدثنا الميتر الآفريقي ، وكان سكن آفريقية ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمى صلى الله عليه وسلم يقول : « من ذاك رضى بالله رباً وبالاسلام ديناً ويحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلا تخذن يده فلا تخذه الجنة » رواه ابن عبد البر بسنده اليه

(١) Mérida من ولاية بطليوس والى الشرق منها وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ سنة ، وسبأى ذكرها في الجزء الآتي من الحلة

(٢) أصل اسمها عند الأبريين « سالديوية » وقد سميت سرقسطة . في زمان الرومانيين باسم الإمبراطور أغسطس فهي Caesar-Augusta أى سيزار أوغسطس وقد حرقها العرب الى سرقسطة وكان يقال لها القصر الأعلى لأنها قاعدة الحدود بين المغرب والأندلس ، وكان الفوط استولوا عليها سنة ١٧٦ وحصروها الاثني عشر (الأندلسيون) في زمان أحمد بن كوفيس فجزوا عنها ، ولما استولى العرب على إسبانية كانت من القواعد الكبار ، وحصروها شارلمان في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الاسبرابول سنة ١١١٨ كما سبأى الكلام عليه ، بعد حصار اسبغر تسعة أشهر وسرب استمرت خمس سنوات . دخل إليها مهران هذه السطور سنة ١٩٣ في أواخر (م - ٣)

من حملة الارزاق بالبنغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل
بغزواته الى فرنسة ، وأنه في « ناربون »^(١) وجد في احدى الكنائس سبعة تماثيل
فضية منقوشة ، وكذلك في قرقشونة عرضت لمطامعه في كنيسة « سانت مارى »
سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة^(٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع
الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التي يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب
والاوقيانوس ونهر البامومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسة

يونيوس وشاهد أهم آثارها ومن جملتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبي جعفر أحمد ، بناه في أواسط
القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة
« السيو » التي بنيت على اتقاض الجامع الاعظم . وبقي الاسبانيول يشتغلون بها من سنة ١١١٩
الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه
الصنعة العربية والزليج الذى تمتاز به قصور العرب . وفي هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصفر من
صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير
يحار له العقل . وفي سرقسطة كنائس كثيرة بديعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايره »
يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض « رابال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل
فى العربى ، وقد سمعت أناساً من تقيف ومن هذيل يقبلون الضاد لأمأ ، وذكرت ذلك فى رحلتى
الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ،
وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الاود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠
فى أوائل سبتمبر وأنا قافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام
بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التي تكثر فى البلاد العربية كالتين والصبير والرمان وما أشبه ذلك .
وفىها زفاق منسوب الى السمع Zama وهو السمع بن مالك الخولانى . وعدد سكانها الآن لا يزيد
على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من نفح الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين
قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت
مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراءوت مثلها ، لا يحيط
الانسان بذراعيه على واحد منها مع طول مفرط

في زمن شارل مارتل (١) وابنه بين (٢) ولا سيما في زمان شارلمان (٣) . وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب تقول « قارله » ابن « باين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريموالد » فحبسه في « كولونيه » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازين وقهر النوسترين في عدة وقائع واستبد بأموال الملك شيلبريك الثانى ، ثم بأموال « تيرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منها من الملك سوى الاسم، وحارب الصكسون والبافارين وتغلب عليهم، وهزم أولاد دوق اكيثانية، الا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصائب الاوسترازين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن الفاقى في وقعة بواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجم الأوريون على أن هذه الواقعة هى التى أهدت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بين القصير » و « كرلومان » و « غرينون » و « رمى » و « برنار » و « جيروم » فاقتسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رمى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بين القصير ابن قارله، حارب الصكسون والبافارين وأميراً اكيثانية . وفي سنة ٧٥١ بويع ملكاً على الفرنج Les Francs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعض الكنيسته له. وترك من الولد شارلمان Charlemagne و كارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب (٣) هو كبير ولد بين القصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك وحارب الاكيثانيين واللومباردين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكسونيين والبافارين والتورنجيين والسلاف والآفارين والدانمركيين، ودوخهم جميعاً. ولكن أشد حروبه كانت مع الصكسونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية معاً ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب ، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب في سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً في تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفي تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى،

وقد كان أشد ما بهت له المسيحيون. أو انشد أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقتهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يمتدوا على سكانه في ما لهم ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس إلى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس، ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزع أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الأحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم إلا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسا أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد إلى دمشق حضرة الخلافة عن طريق ألمانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الإسلامية ، يخدم مواصلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى إلى أرض فرنسا . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارسة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالاً مستمراً، برأ وبحراً، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسرديانية ، واسترجع منهم بلاد كالتالونية وأراغون إلى سرقسطة. وذلك بمساعدة إسبانيول آستوريا ونابار . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقسطة . وبينما هو قافل عنها دهمه الباشكنس في « رونسفالس » فاستأصلوا ساقه جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين رافقوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأفاصيص في فرنسا وتغذت بوقائمه شعراؤهم وزجلوهم ، أشبه بمنزلة عندنا . وقيل إن العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازى ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار . وان الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالبين « اه كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرئ فوجب أن ننقل قول المقرئ في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفتح الطيب ما يأتى ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تزجج الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياقو Santiago ويقول لها الافرنج Saint - Jacques De Compostelle) فبينما هو يعمل فى ذلك ويُعيد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوغول فيها ، فسأه ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فسكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حسن بارو وحصن لك (هو فى الافرنجية Lauque) فأقام هناك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالاسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطق الاسلام بأرض الأندلس . وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكفى أبانصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى فى القبول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة «لك» بجليقية وخرج على الفج المروف بفتح موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعاً ، وقفل معها الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امانة الأندلس وأقره
بعدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر . وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس
وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة ، وبعد دخوله سنتين
وأربعة أشهر . وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائة (سيأتي
ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهاً بها ومعها من الجواهر ما لا يقدر قدره
وهو مع ذلك متلهمف على الجهاد الذي فاته أسف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل
أن يخرق ما بقى عليه من بلاد افرنجة ويفتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس
في الشام ، متخذاً مخرقه بتلك الأرض طريقاً مهيباً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم
ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل في أرض الفرنجة
حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً
كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : « يا بني اسماعيل انتهيتم
فارجعوا » فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير . فشاور أصحابه في الاعراض
عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد
أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اه

وجاء في نصح الطيب بعد ذلك بصفحتين ما يأتي : وذكر بعض المؤرخين أنهم
وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي : ارجعوا يا بني اسماعيل الخ - مامعناه :
(وان سألتهم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض^(١)) اه

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرقة عن قصة أخرى . والحقيقة أن
عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذلك من اختراق أوربة من الغرب الى المشرق ونفوذ
الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذي
يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الحارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز
- ان صح خبرها - أن تكون كتابة محدثة نقرها الافرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب
بعد أن رأوهم أوغلاوا في بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلي :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد وأتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتوغل في الأندلس الى برشلونة في جهة المشرق ، وأربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب . ودوَّخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام دروب الأندلس ودروبه ، ويغوض اليه ما بينهما من

من اكمال مشروعه بسبب الحاح الحاجة الوليد عليه في القدوم الى دمشق ليقف منه على حقيقة خبر الأندلس وافرصة ويشافيه في عمل عظيم كهذا لا تكفي المسكاتبة من بعيد في تدبيره . وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم الفاصية أو تنزل بهم داهية ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كونت سبتة وشوقه الى غزو الأندلس انتقاماً من المالك للربيق الذي كان اغتصب ابنة يليان على ما سيأتى خبره في الجزء التالي ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه يليان ويستأذنه في انتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : نخضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ولا تقرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . فراجعته موسى بأنه ليس ببحر زحار وإنما هو خليج منه يبين لناظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فإذا كان الخليفة لم يسمح لموسى ببحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من اسبانية الى فرنسا الى ايطالية الى بلاد البلقان الى القسطنطينية الى آسية الصغرى بدون أن يتروى في الأمر ويرويه مرة قبل أن يقدم عليه ، فقد كانوا في اشتاق دائم على جيوش المسلمين أن ينقطعوا عن مركز الخلافة وتحمل بهم نائبة وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امثلاث بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لا يزال يذكر في اخراج المسلمين منها وإعادةتهم الى افرريقية خوفاً عليهم لا تقطعها عن بلاد الاسلام . ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستخدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف المعروف حتى يتروى فيه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه وكان حاقداً على موسى فنكبه تلك النكبة الشنيعة وجزاه على فتوحاته جزاء سنار ، وعطل ذلك المشروع بمحمد وانهياده الى هواء دون المصاحبة العامة . وسترى في كلام ابن خلدون أن استخدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم الى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونعى الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تقرير بالمسلمين، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرَّ الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها . واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة . واحتلّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها ، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر . يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على افريقية ابنه عبد الله ، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب ، فكان صاحب القيروان ناظرآ في الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه . وثارَت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان . وكان خيراً فاضلاً وافتتح في ولايته مدناً كثيرة . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري . وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وصل أشرفها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبته، فأسرع موسى باللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع اليه ما معه من الذخائر والأموال، ففاظ ذلك سليمان ، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر اليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اه

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني : ارتدَّت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك حينئذ استقر الاسلام

بالمغرب واذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اه
وقال ابن عذارى المراكشي في «المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» مايلي :
وفي سنة ٩٦ توفى الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة وولى الخليفة سليمان
فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر، في الشمس، وكان
رجلاً بادناً ذا نسمة، فوقف حتى سقط منشيئاً عليه، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم
تنظر كتابي هلمّ مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معي من
الأموال فمن أين لي مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتي ألف . فاعتذر . فقال :
لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتمذيبه وعزم على قتله . فاستجار يزيد بن المهلب
وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدي ما عنده . وقيل ان موسى
افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن
المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : يا أبا عبد الرحمن في كم تمتد أنت وأهل
بيتك من الموال والخدم أتكونون في ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم
ألقيت بيدك الى التهلكة؟ أفلا أمت في قرار عزك وموضع سلطانك؟ فقال : والله لو
أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئاً، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج
عن الطاعة . اه

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق
المصاء ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليمان بن
عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه
بمالا يكافأ به مجرم . وهو في الحقيقة لا من أعظم رجال الإسلام فقط بل من أعظم
رجال العالم . وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصموية المراس
بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن
الإسلام اثنتي عشرة مرة . فلم يستقر إسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفي ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأُخِن فيها ما أحاطه موسى وأُخِنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تهب حوالياً كالأمواج الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوفاً لهمته بل حدثته نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر، في بعد المهمة، أن يوغل في أرض الأفرنج ويمطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية .

وقرأت في تاريخ « دول الإسلام » للإمام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عاماً، وأنه كان يقول: لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا إلى المدينة قال موسى لأصحابه: ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكركه المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتفِ سليمان بن كبة موسى في شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير إفريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها إلى العقل أنه لما بلغه ما حل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان إلى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه (١) .

(١) جاء في كتاب « بغية المتمس في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال: كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام والياً إلى أن كتب سليمان بن عبد الملك إلى الجند هناك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩ وقال: إن الجند

قال ابن عذارى : « فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذارى أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهي في الواقع من الجرائم التي لا تغفر . ولكن مما لا يجوز أن ننسأه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانته ، بعد أن تلاقيا في الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كِبارة نفس موسى وعلو همته ولم يخلُ من تأثير في قضية نكبته لأن طارِقاً شكاً الى الخليفة ما فعله به وظاهره في ذلك منيئ الرومى رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره ^(١) في عهد الحكم

اجتمعوا على قتله لأمر نفوسها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وانه لما حضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أتعرف هذا ؟ قال : نعم أعرفه صواباً قواماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اه
(١) قد أورد دوزي المستشرق الهولاندى المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب « أخبار مجموعة » هذا بحثاً مدققاً كعادته في المقدمة التي وضعها بالفرنسية على كتاب « المغرب في أخبار المغرب » لابن عذارى المراكشى فقال دوزي ما يحصله :

« ان المغرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لعجيبة فليس في الأمم أمة تضاهيهم في حفظ ما يفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا ما لا يبال له . فلم يكن بهم حاجة اذا الى كتب مدونة . وكان التاريخ في جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرأ جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا التأليف في الديانة وكانت التأليف في غير الديانة مكروهة . فلمذا ندرت الكتابة في التاريخ في الصدر من أيام أمراء بني أمية بالأندلس . ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد منحة بتاريخ ابن القوطية وعليها هذا الاسم التالى : أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس وذكر من وئها من الأمراء الى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عايسا وملسكه فيها هو وولده والحروب الكائنة في ذلك بينهم . ومن تأمل في هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك في أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الكتاب الثاني »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث

الا أنى رأيت ابن الخطيب يتقل في كتابته عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخزائى لم أجده في مخطوط « أخبار مجموعة » الذي في خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأى . والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهى الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا في زمن المنصور ابن أبي عامر بل في القرن الحادى عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأندلس هتف قائلاً : « وليت الله كان أبقاء حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثانى وفتوحات المنصور ابن أبي عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربي الذي شاهد حوادث الأندلس في عهد تفهق العرب فيها كالقرن الحادى عشر للمسيح (أى بداية الأربعمائة للهجرة) الذي كاد فيه الاذفنى السادس يستولى على جميع ديار الساميين في الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد في هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا في القرن العاشر المسيحي وهو الذي يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدى مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول في مكان آخر انه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصرى هذا الأمير ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغى أن يكون سمع من فم رجل عاش في القرن الثامن . وعبارته هذه هى : أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغى أن يكون بعض هذا الكتاب كتب في أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة في مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادى عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد وما يجدر بالذكر أن كل من تأمل في هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بنى أمية اه

قلت : يجوز أن يكون في هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون المتشائم عاش في القرن الحادى عشر للمسيح أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائمًا وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمى الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع نقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أى أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعامل بشفوف بصيرته يدرك طرفاً من خزائن الغيب، وصدور الأمور مؤذونات بأعجازها . وسندكر فيما يلى من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزى عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً - وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقرئ وهي أنه دخلها بعشرة آلاف - وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه . قال : ما كنت لأسلك طريقه ، فقال له العلو ج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلاً بذلك سروراً ، فكان فعل طارق قد غمّه ، فساروا به الى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ^(١) فقدم اليها العلو ج الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف ، فقدم اليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان ، فأتوهم على حال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخيل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة - من أبواب قرمونة - فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطباً وأعجبها بنياناً وآثاراً ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غاب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة ، وبقى شرف الرومانيين ونقمهم ودينهم ورئاستهم في دنياهم باشبيلية ، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلو ج الى مدينة باجة فضم موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف ، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حفراً كانت مقاطع للصخر فأكمن فيها الرجال والخيل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة . وهي مدينة حصينة لها سور لم يبنِ الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المتهدمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقاتلهم أشهراً حتى عمل دبابه فذب المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا
صخره فلما نزعوا صخره أفضوا في داخله الى الصماء التي يقال لها « اللاشه ماشه »
بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم . فبيناهم يضربون فيها إذ استفاق
عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابه فسمى بذلك البرج « برج الشهداء » الى اليوم .
وما أقل من يعرف هذا . وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر .
فلما كان من أمر الشهداء ما كان ، قال العلوج : قد كسرناه فان كان يوماً مجيئاً الى
الصلح فاليوم فاطلبوه اليه . فخرجوا اليه فألفوه أبيض اللحية فراوضوه على شيء لم
يوافقه ثم رجعوا . فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراضوه فاذا هو قد شبب لحيته
بالحناء ، فألفوه أحمر اللحية ، فمجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذي
رأيناه بالأمس . ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا اللحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم
فقالوا : يا حماقي انما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشبيون (١) قد صار
ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً ، اذهبوا فأعطوه ما سأل . فصالحوه على أن جميع
أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهارين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها
له . ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين . ثم ان عجم أهل اشبيلية تحيلوا
على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبله ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من
بها من المسلمين - قتل فيها ثمانون رجلاً - فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة فلما
فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع . ثم مضى
موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة . وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظماً له متقبياً
فلقية بكورة طليطلة ، فلما رآه نزل اليه ، فوضع موسى السوط على رأسه وونبه فيما كان
من خلاف رأيه ، ثم سار به الى مدينة طليطلة ، ثم قال له : أحضرنى بما أصبت وبالمائة (٢)
فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرهما من أرجلها فقال له : أين هذه الرجل ؟ فقال : انى لا

(١) ماورد في كتب اللغة فعل « تشبب » بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب قاسها
على فعل « تشيخ » أى صار شيخاً

(٢) سنأتى بغير هذه المائة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لي، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفظ من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدائنها . اه
ولم يرد في « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجة . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فانه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان بإشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبید الله بن زيد عامله على افریقیة بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزیاد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقفلهما اليه مع من شركهما في قتله من وجوه الناس

الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم في صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمي^(١) ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحر بن عبد الله الثقفي . ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السمح ابن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يحمس الأراضى ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله من أرضها وعقارها ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لانتقاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفي أيام عنجبية

(١) هو الذي بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهي مدينة مررنا

عليها في طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان في الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام ولكثرة قتل العرب بعضهم مع بعض وقتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمع بن مالك الخولاني تولى عنبة بن سحيم الكلبي ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى واقعة بلاط الشهداء (١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربى القرشى (٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندى) الاسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحي أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد فى بلاد الغال كانا من الأسباب التى سهلت للمسيحيين اللتجئيين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هى واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) فى الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلى : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخاف عليها ابنه عبد العزيز ، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبدالرحمن القيسى سنتين وثلاثة أشهر ، ثم وليها السمع بن مالك الخولاني سنتين وتسعة أشهر ، ثم وليها عنبة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر ، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسى سنة واحدة ، ثم وليها عثمان بن أبى نسعة الخثعمى خمسة أشهر ، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى أربع سنين ، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين ، وشهرين ، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسى أحد عشر شهراً ، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين ، ثم وليها ثوابة الجذامى سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بنى أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء فى الحاشية فى الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمي كما فى فتح الطيب والعبر

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سحق الناس على ادارة الحرّ، وتبرّم الدهاء بعسفه ، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمراء وصاروا إلباً عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأشتورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فنقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو ييلاي^(١) أول ملك للاسبانيول بعد دخول العرب للاندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمراءها والحروب الواقعة بينهم » أن عبید الله بن الحبّاب بن الحارث ، مولى بنى سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبه بن الحجاج السلولى الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامى وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتى، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابنه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابنه ما كان حسدا من أقصى اربونة وراجعا أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام^(٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى . فأقبل

Pélagé (١)

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثائرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جايقية واسترقة وشمالى الأندلس . ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامى بعبد الملك وقتلوه واضطر ولداه قطن وأميه أن يرجعا الى البربر ويستعينا بهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتبس هكذا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهران الفهرى أمير الأندلس وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى الأمير بافريقية وقتل بالاندلس سنة ١٢٥

قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون اه
ومن هنا يعلم القارى ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بعقرتها
وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة

نعود الى كلام المستشرق «رينو» في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسة
فهو يذكر ان قطن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفست من
خناق المسيحيين في الاندلس وفرنجة. ويقول: ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ
توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون
ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة. ولا شك ان سموهم الى فتح
شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة. ولكنه يقول: ان مؤرخي
العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على «اللانغدوق» في أيام ولاية الحر الثقيفي
سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية «ايزيدور» اسقف «باجية»^(١) وهو من المؤرخين الذين
عاشوا في ذلك العصر، و«لندريق شيمينيس» مطران طليطلة^(٢) وقالوا: ان العرب
زحفوا الى الامام حتى وصلوا الى مدينة «نيم» ولم يجدوا مقاومة ورجعوا بالغنائم
والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسة لتقدر أن تقف في وجه
العرب المندفقين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة
«الكسالي»^(٣) اذ ذلك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها «القوطية» *Gotie*

(١) قال رينو في الحاشية انه نقل روايات ايزيدور الباجي عن مخطوطات متعددة.

(٢) لندريق شيمينيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح. واعتمد على كتب العرب. قال رينو

ان تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن

(٣) *Fainéants* هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط فيها . وقد يقال لها أيضاً « سبتيانية » أى « السبعية »
لاشتمالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة^(١)
وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكينتانيه^(٢) وكان هذا يدعى انه من ذرية
الملك كلوفيس^(٣) وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسة الشمالية فكان يكرمه
بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بها من دون
الملوك ولم يبق لهم هم الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج^(٤) فى تلك المملكة
مما ثنى أعنتهم عن صدّ العرب الموجفين على جنوبي فرنسة

فصارت بلاد اللانغدوق والبروفانس متروكة لاهلها الغالين^(٥) وكان هؤلاء
شعباً مركباً من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين
عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق لجنوبي فرنسة فى ذلك الوقت أحسن
من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسبانية العربية كان مرجعها
القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن
من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد
وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم
ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة
ولما كانت أراضى المسيحيين التى دخلت فى حوزة الفاتحين قد صارت الى أيدى عدة

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم
الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسة من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥)
الى عهد « شيلدريك » الثالث (٧٥٢)

(١) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodève. Carcassonne et maguelone

(٢) Eudes duc D'itquitaine

(٣) Clovis أول ملوك فرنسة هذا الذى يسميه المسعودى قلوذيه

(٤) Les Francs الفرنك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسة فنسبت اليهم وتسمت

بهم ثم ان العرب تلفظوا بها « الفرنج » أو « الافرنج » وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين

(٥) Gaulois نسبة الى بلاد الغال. والفرنسيس يقولون الغول

من ذوى الأَطاع، وحرَم كثير من المستحقين، النى الذى يستحقونه، أدّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض. وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرخی من رباقتها وهو انتقاض عصابة من مسيحي اسبانية فيهم شماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضوارى، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلجأوا الى جبال آستورية^(١) وغاليسية^(٢) ونابار^(٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مادب من الخلل الى موقف العرب بالاندلس، فأنفذ اليها السمع بن مالك الخولانى أميراً، وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور. وكان السمع مدبراً حكيماً وقائداً باسلاً وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدخل والخرج وأنصف الجند فى الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضى وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريعها الى بيت المال. وكان الخليفة قد أمر السمع بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات، ليبرم فى أمر الاندلس رأياً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر فى اجلاء مسيحي اسبانية وجنوبى فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السمع طمأن مخاوف الخليفة قائلاً له: ان الاسلام ينمو وينتشر وتمتد شاريخه بسرعة فى اسبانية، وانه لا يبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد. روى ذلك بعض مؤرخى العرب وأسفوا من كون السمع بن مالك الخولانى لم يعمل برأى الخليفة فى هذا الموضوع^(٤) انتهى

(١) Asturies والعرب يقولون اشتوريش

(٢) Galice غاليسية وأكثر ما يقول العرب جليقية

(٣) Navarre والعرب تقول نبره ونابار والاسبانيول يقولون ناباره

(٤) قال رينو فى الحاشية: ان من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السمع هذا ابن القوطية

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخي الاسبانيرل والافريج
بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرئ في النسخ عن ابن حيان مايلي :

قالوا ان موسى اضطلع مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه
وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى الى الثغر الأعلى
وافتح سرقسطة وأعمالها وأوغل في البلاد، وطارق أمامه، لايران بموضع الافتح
عليهما وغنمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما
أحد الا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق
للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه
ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجة
ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادي « ردونة (١) » فكان
أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم . وقد دوت بعوث طارق
وسراياه بلد افرنجة، فملك مدينة برشلونة (٢) وأربونة (٣) وصخرة « اينيون (٤) »
وحصن « لودون (٥) » على وادي ردونة، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً .

(١) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس »
باللاتيني ومنه قال العرب « ردونه » كما كان الافرنج يقولون له في أيام قدومهم الى تلك الديار .
وهذا النهر يخرج في سويسرة وينصب في بحيرة ليان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة
ويتصبب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة في اسبانية وارقاها وسيأتى عليها لكلام
فيما يأتي

(٣) Narbonne

(٤) Avignon والعرب تقول « اينيون » لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت « اينيون »
بالفاء الموحدة . وصخرة اينيون هي المكان الذي بنى عليه قصر الباباوات الذين جعلوا اقامتهم
بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة في فرنسة في عدد السكان . وأصل اسمها « لودونوم » يمر بها نهر
الرون والساوون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهي من أعظم المدن الصناعية في أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة اينيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدأمنة فيما بين الأجل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب ققاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بمحصاتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامره زعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شككها بالرجال فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن الغافقي . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسي، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمع بن مالك الخولاني . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجي وشيمينس مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فأنهما يذكران غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذي في نفح الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

الوالي الروماني لوسيوس موناتيوس سنة ٤١ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفي أميراً على الأندلس . وفي صفحة ١٤٠ من نفتح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريه اشيلية . ثم أيوب بن حبيب النخعي ، وسريه قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة والزهران والزاهرة بجانبها الى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينه عليه . ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمع بن مالك الخولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبسة بن سحيم الكلابي . ثم عذرة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلابي . ثم عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي . ثم حذيفة بن الأحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلابي . ثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ثم عبد الملك بن قطن الفهري . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم أبو الخطار بن ضرار الكلابي . ثم ثوابة بن سلامة الجندي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . قال : وههنا انتهى الولاية الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة ٩٢ الى يوم المهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى

وأما ابن عذارى في « البيان المغرب » فيذكر في الجزء الاول أن محمد بن يزيد أمير إفريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي ، وكانت الأندلس اذ ذاك الى والى إفريقية كما كان أيضاً والى إفريقية من قبل والى مصر . ثم قال : وسنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمز بن عبد العزيز رضى الله عنه يوم وفاته فاستعمل على إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمع بن مالك الخولاني . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على افريقية ولي الأندلس عنيسة بن سحيم الكلبى . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على افريقية تولى عثمان ابن أبي نسة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عبيد الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد بيلاط الشهداء . ثم ذكر اماره عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ، ثم ولاية أبي الخطار الكلبى ، ثم ولاية ثوابه بن سلامة الذى ثار على أبي الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الأندلس » فذكر بعد اماره عبد العزيز بن موسى بن نصير اماره أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجلاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمه عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى (١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرق القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى افريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاها اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد افريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يوماً ثغراً فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراج افريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا خلف الثمانية ونكل اسمعيل بن عبيد الله

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وتقيف

من بطون هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما الى نفسه فاختر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما ولي عمر ولي اسماعيل افريقية وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يغمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة، خمساً لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهاها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا تقطاعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمح سنة مائة فوضع يداً في السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفي اخراج البعوث . وبني القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيريه ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه . نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرني أمير المؤمنين بينان سور المدينة فعلت فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر بينان القنطرة بصخر السور وأن يبني السور باللبن اذ لا يجده صخرًا فوضع يداً فبني القنطرة في سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان افريقية، فمزل بشر السمح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم تناوبت ولاية الأندلس بعد عنبسة . فوليا يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبي نسمة الخثعمي ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، وعلى يديه استشهد أهالى بلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن الحاربي محارب فهر من قريش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاية يجاهدون العدو ويتوسمون في البلاد حتى بلغوا افريقية وحتى افتتحت عامة الأندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الجحباب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والأندلس .

فأقر بشر بن صفران على إفريقية وولى عقبه بن الحجاج الأندلس. (ثم قال):
فدخل الأندلس (أى عقبه بن الحجاج) سنة عشر ومائه فأقام عليها سنين وافتتح
بالأرض حتى بلغ أربونة، وافتتح « جليقية (١) » و « البة (٢) » و « بنلونة (٣) »
ولم يبق بجليقية قرية لم تفتح غير الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له « بلاى » فدخلها
فى ثلثمائة راجل، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة
منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة
فما يقال انما كان عيشهم بالعسل، ولأذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم
جباح (٤) والنحل عندهم فى خروق الصخرة، احترزوا وأعبي المسلمين أمرهم فتركوهم
وقالوا: ثلاثون علجاً ماعسى أن يكون أمرهم؟ واحتقروهم. ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم
سندكره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اه

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبه بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس
الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى إفريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله
المرادى، وشغل صاحب إفريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة، فوثب عبد الملك بن قطن
المحاربى على عقبه بن الحجاج، فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجه؟ فملكها بقية ٢١ و ٢٢
و ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيرى ثم الكعبى بأهل الشام. وقد وصفنا سبب
دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أو غاليسية: يحدها من الشمال والغرب بحر الاوقيانوس، ومن الجنوب البرتغال، ومن
الشرق بلاد ليون وجبال أستوريش، وفيها لقى العرب أشد المقاومة. وكان انضم هذه البلاد الى
مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلا، ففى
عندها اندمجت فى بقية اسبانية. والاسبانيول يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava إحدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبى اليرانه أهلها من الباشكنس

(٣) العرب كانوا يسمون نافار بنبلونة وأحياناً نبرونة وقد يقواون لها نبرة. وهذه اللفظة

بنبلونة Pampeluna اسم مدينة فى نافار فيها قلعة

(٤) الجبح - بضم فسكون وبكسر فسكون - حيث تعسل النحل. قال فى لسان العرب: اذا كان غير

مصنوع والجمع أجبج وجبوح وجباح. وقيل: هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة العاملي ، وجار في سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير افريقية يشكون ما هم فيه ، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلاً من خيار الناس وأنزل أهل الشام في الكور . وبقى أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن . وشمر هو الذي قتل الامام الحسين ابن علي رضي الله عنه ، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة الى الجزيرة ، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنسرين ، ورأس الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا ، وتولى ثوابة بن سلمة الجذامي ، ثم مات سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري . وفي أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن ، فأنحازت مضر وربيعة الى يوسف ومعه الصميل ، واجتمعت يمن الأندلس حيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها تحت لواء أبي الخطار . وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب « أخبار مجموعة » : وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا أن يحفظه الله .

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمي الاندلس من وراء البحر فقط ، بل من جهة الفتنة التي لا يفتروا أوارها فيما بينهم . ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون ، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانيول فحسب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض ، وهو مرض الفرقة الذي رافقهم الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك (١)

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطاغيتان فرديناند وايزابلا آخذين منهم بالحق الذي يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمسكر من الحجر بدلا من الخيام ايداناً بأنهما لن يقلعا عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاتلون الاسبانيول في النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليمانية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث ^(١) وأبا الخطر زحفا الى يوسف والصميل ^(٢) بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة » ^(٣) وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الاسلام صبر مثله الا ما يذكر من صفين ^(٤) . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء . ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين ، وكانوا متقاربين ، الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيا بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض ، بالقسي والجمعاب ، ويحتمن بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه ، فأخرجهم منهم نحواً من أربعمئة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزارون بسكاكينهم نجاءوا الى قوم موتى وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجرّدهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً اختياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث

مساء فيقتلون في البلدة بعضهم مع بعض ، حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر نبوءة سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير : كان أميراً بكورة رية وبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرجت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذري في « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدى اليهم مالا . وحرب القيسية واليمانية في الاندلس كانت التلعة التي اتتحم منها الاسبان والافرنج على العرب حتى نكص هؤلاء الى الورا وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيّب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس عليّ قوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث . فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً . وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالأسرى وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجدھا الجامع ، فضرب أوساط سبعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المرسي قام إليه فقال له : أبا جوشن أغمد سيفك أو ارجع سيفك . قال له : أقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يغمد السيف . ثم قام إليه فقال له : يا عرابي ، والله إن تقتلنا إلا بعداوة صفين لتكفنّ أولادعون بدعوة شامية . فأغمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : إن تلك الواقعة توجد في بعض العلم أنها قاطعة الأرحام ^(١) . وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاءت الأندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث ، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر عليج يقال له بلاي ، قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ^(٢) وغاب على كورة « واستورس » ^(٣) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة » ^(٤) زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه ^(٥)

ينكصون إلى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مأتياً

(١) قرأت في كتاب « تاريخ مسلمي اسبانية » لدوزي المستشرق الهولاندي الذي يعده الأوربيون أفضل مؤرخ لدولة العرب في اسبانية كلاماً معناه أن بغض قيس لليمن وبغض اليمن لقيس هو أشد من بغض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilar « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون في شمالي اسبانية ، والاسبانيون يكتبونها Astorga

(٥) أي إن هذه الفتنة بين العرب بعضهم مع بعض اهتبل الاسبانيون فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذنب في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى « استورقة » حتى استبحم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى « قورية (١) » و « ماردة (٢) » في سنة ست وثلاثين واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت اجازتهم من واد بكورة « شدونة (٣) » يقال له وادي « برباط (٤) » فتلك السنون تسمى سني برباط فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الأندلس والذين كانوا يغزون افرنجية أو فرنسة . ولنصف اليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » (٥) فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول انه عزل بمنبسة بن سحيم الكلبي ، ويقول ان عنبسة تولى الأندلس سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان امير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبسة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افريقية ، لا بشر بن صفوان ، وان بشر بن صفوان كان والياً على افريقية

من جليقية . وهكذا تأسست الدولة الأسبانية الاولى بعد الفتح العربي وما زالت تشتد وتعتمد حتى أخرجت المسلمين من كل اسبانية

(١) Coria

(٢) Merida من بلاد بطليوس في غرب الأندلس

(٣) Sidonia

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانيولي Barbate

(٥) احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي له تاريخ بغية الملتبس وصل فيه إلى أوائل دولة

الموحدين وذكر واقعة الأرك الشهيرة التي أдал الله فيها للمسلمين على الألفنش الملقب بالانبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١ هـ

وقت مقتل عنبسة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلابي . ويقول ابن خلدون : ان استشهاد عنبسة كان في أرض الفرنجة سنة ١٠٧ . وبين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف في الأسماء ، لعلمه من تصحيح النسخ . ففي نفع الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الكلابي » - وهكذا في صبح الأعشى - وفي « أخبار مجموعة » الهيثم بن عفير الكلابي . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافق بلا فاصل ، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين وأما ابن عذارى فيذكر في « المغرب » أن بشر بن صفوان تولى افريقية مرتين وفي الثانية منهما ولي على الأندلس عنبسة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولي على الأندلس يحيى بن سلمة الكلابي . ومن هنا يعرف أن مقتل عنبسة بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هي رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو^(١) يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندي الاسبانيولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول : ان السمع بن مالك الخولاني الذي تولى الأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز بعد أن سكن الدهاء وأصلح الأمور في الداخل أعمل همته في الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد اللثايات ويمقد صرايئهم بعد الانتكاث قال : وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية ، في خلافة يزيد بن عبد الملك ، وكان مضى على فتح العرب للأندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمع الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم

(١) . استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذي في مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البنديكتي المشهور في علم التاريخ ولد في « آميان » سنة ١٦٨ وتوفى سنة ١٧٥ . واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع « موزاتورى » Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد . قالوا وكان الفقراء والمحاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وافريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفارقهم بالفتوحات وارتداد الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السماح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبي نساءها وذرائعها . وكانت أربونة بمصاقتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض افرنجة . فزاد السماح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة وقرقشونة، أي قبل أن دخلت اليها . وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت اليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لكونها على كئيب من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على الماء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية في جوار اسبانية، فكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلومترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بجريه من آلاف وآلاف من السنين وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً. ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أي انها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيظ لولا نسبات لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسد في التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الكرم

وفيهما جميع أشجار البلاد الحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير
ويمر بأربونة جدول اسمه « رويين^(١) » مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود
وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين، من العصر الحجري، وعلى
قبور مما قبل التاريخ . وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار الساميون على
أربونة واستقروا بها . وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون
الى سواحل بروفانس والكاتالان

وقد جعل الجليل المسمى « بالفولسك^(٢) » مدينة أربونة حاضرة لهم . وجاء
الرومانيون سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزا تجارياً عظيماً
تضارع مرسلية . وكان الولاية الرومانيون يقيمون بها ، وكانت لها امتيازات لعهدهم
عريضة ، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر . سنة ١٤١٣ استولى
عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة « بلاسيدية غاله^(٣) » اخت الامبراطور
الروماني ، وكانت لزوجها فيها حفلة عظيمة . ثم استولى على أربونة « غونديبود^(٤) » ملك
البرغونديين^(٥) ، لكنه لم يتمتع بها طويلاً ، وعادت للقوط ، وثبت هؤلاء فيها
برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن « دليل أربونة^(٦) » ولنذكر ما جاء في هذا الدليل
بشأن العرب ، قال : في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على « سبتيانية »

La Robine (١)

Volsques (٢)

Placida - Galla (٣)

Gondebaud (٤)

(٥) Burgundes شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن
وادي الرون أو ريدونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغالين . وقد تزوج كلوفيس ملك فرنسا
بأبنة غونديبود ملك البورغون أو البورغون هؤلاء . وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتح « زاما »^(١) أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية لخصتها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه . ثم ان « بين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فتاروا بالحامية العربية وذبحوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لنجدها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفراس المشهور غليوم^(٢) وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه ، وسلم أنف غليوم في المعركة ولقب من ذلك اليوم بندي الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربي بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب انتهى ما جاء في دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب . انظر الى ما

جاء في نفح الطيب في هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزينا موسمنا بمثل هذا^(٣) . وفي أيامه

(١) السمع بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفي أربونة

اليوم شارع باسم السمع Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضى الله عنه الأمير هشاماً الأموي صاحب الأندلس . فال الى مذهبه في الفقه ، وحمل عليه أهل الأندلس ، وكانوا من قبل يتفقون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضى الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية^(١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة وبني منه المسجد الذي قدام باب الجنان ونضات منه فضلة بقيت مكومة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد «البه»^(٢) والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه ستة خمس وسبعين . وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت، فلقى «ابن منده»^(٣) وهزمه، وأخن في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث^(٤) لغزاة العدو، فبلغ البه والقلاع فأخن في نواحيها. ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجريدة^(٥) فأخن فيها ووطى أرض برطانية^(٦) .

(١) العرب كانوا يسمون بالجلالفة أهالي غاليسيا في شمالي اسبانية وأهالي جنوبي فرنسة أحياناً

(٢) Alava وقد تقدم ذكرها

(٣) لا أعلم ان كان هذا هو الاسم الحقيقي أو كان محرفاً عن «برموده» Bermude وهو ملك كان في جليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للاذفنش لأنه كان أضع به منه . اتنا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير اسباني اسمه «ابن منده» وتحرير العرب أسماء الافرنج وتحرير اسماء العرب بحر لا يلجج فيه

(٤) الأورخ الاسبانيولى كوندى يذكر أن الأمير هشاماً أرسل جيشاً إلى جبال الاشتوريش Asturias عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يثقون بسبل تلته

(٥) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسة الجنوبية الغربية، يحدّها اليوم من الشمال شارانت. Charente السفلى، ومن الغرب خليج غامسقونيا، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن

الشرق مقاطعة لووغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne

(٦) مقاطعة عظيمة من غربي فرنسة Bretagne أهلها من الجنس السلتى ولغتهم غير الافرنسية يحد برطانية من الشمال بحر المانش، ومن الغرب والجنوب الغربي البحر المحيط، ومن الجنوب الشرقي «بواتو» ومن الشرق «انجو» و«ماين» ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاهها ٣٥ أميراً وماستلحقها فرنسة الا في أيام فرنسا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع إلى الاستقلال عن فرنسة . والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الافرنسية بل امبرطانية الكتالانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبلها جريدة

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية، فانتهى الى «استرقة»^(١) فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث بالجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأخذوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اه
فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقرئ في النفح: «ثم بعثه في العساكر الى أربونة، وجرندة فأخضع فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثانية والأشخان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في المعاملة الإسلامية لهوتسما وباسيت ورفاقها، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وإنما قالوا أنه أغزى مراراً الجيوش الإسلامية بلاد النصراني وجنوبي فرنسة، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و«أوبياده»^(٢) من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في إسبانية، ممن لم يخضعوا للعرب، من أعقاب بلاي^(٣)

التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه، فإن اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب. نبهني الى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي القهري وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندى نبغ منها علماء أعلام مثل أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن الجرندى الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر الثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الانقاس. ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلاً ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل. روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلاً خاصاً عن فتح العرب للمدن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عند ما فتحوا الاندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانيول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب

للاندلس وسندكر خبره وخبر أعقابه تفصيلاً في الجزء الثاني

وغزا جيرونة (١) وأربونة . ولم يرد في الانسيكوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة
أما المؤرخ الاسبانيولى كوندى فإنه يذكر غزوات الأمير هشام في جليقية
بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته في نواحي
البيرايه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك ، ويقول : ان عبد الله هذا فتح
جيرونة سنة ٧٩٣ وفق ١٧٧ . وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فمهر
البيرايه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها ، ووصل إلى قرقشونة حيث
تجمعت لصدده أمراء البلاد قاطبة ، وناجزته الحرب بين قرقشونة وأربونة ، فظهر المسلمون
في هذه المعركة ، وانهزم المسيحيون انهزاما غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل
راجعا إلى الانداس بعد تلك الطائلة . وقيل : ان سبب قفوله هو خونه أنه بطول
القتال يفقد الغنائم الوافرة التى كان غنمها . وقالوا : ان هشاما جعل هذه الاموال في
بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة ، وسرح عبد الكريم
ابن الحاجب عبد الواحد إلى جايقية فمات ودمر ، ولكنه سقط في كمين دبره له
الاذفش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان
وأما المستشرق رينو في كتابه « غارات العرب على فرانسة ومن فرانسة على
سافواى وببيمونت وسويسرة » فإنه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما
تابمهم فيه لذريق شيمينيس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين
المساكين على ظمورهم وبالمجلات من مسافة مائتى مرحلة ، ويقول ان مؤرخى العرب
زعموا سقوط أربونة تلك النوبة في أيديهم ، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون
المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم
يقول ان النويرى الذى روى خبر هذه الغزاة ببعض تفصيل لم يصرح بأن جيوش
العرب استوتت على أربونة في هذه الغزاة واستقرت فيها (٢) ، وسندكر بقية هذا

(١) Gironna من بلاد السكالاتان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسودى في سروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتي عند الكلام على غزوات بني أمية في فرنسا

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة افراغة على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى

ثم ذكر دوزي الهولاندي، ادرى من حرر تاريخ عرب الأندلس من الاوربيين، وذلك في الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام في اسبانية » انه بعد ثورة « بيلاي » جرت حوادث أخذت بأيدي الأستوريين، وهي أن مسلمي شمالي اسبانية كان أكثرهم من البربر فناروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر في البداية على العرب، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالنار وغلظوا على البربر فألجأوهم الى الجلاء راجعين الى افريقية، وعلى تقيمة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية، فلم يبق من البربر هناك الا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فنار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « بيلاي » وذلك سنة ٧٥١ مسيحية، وذبحوا من بقي من المسلمين، ولم يبق منهم أحد في « براغة » ولعل براغة هذه هي التي يسميها المسعودي افراغة (لأن القاء يلقظها الأسبان باء) Braga ولا في « بورتو » Porto ولا في « فيزو » Viseu . وأصبح جميع الساحل الى مصب نهر « دورو » أي الوادي الجوفي Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة » Astorga و « ليون » Léon و « سمورة » Zamoura و « دجنة » Diesma و « طلمنكة » Talamanqua فاستقروا في « قورية » و « ماردة » Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمينكه » Simankas و « سيقويه » Segovia و « ايباه » Avila و « أوقة » Oca و « ميرانده » Miranda على نهر « ابره » Ebra . وصارت ثغور الإسلام « قويمرة » Coimbra وقورية و « طلبيرة » Talavera و « تطيلة » Tudela و « بنبالونة » Pampelona

رجع الحديث الى السمح بن مالك الخولاني

وغارات العرب على فرنسا

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة ، وشجن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو
طلوزة (١) وكانت وقتئذ عاصمة ا كيتانية (٢) فشد « اود » ذوق ا كيتانية كل ما قدر
على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقها
واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتلها إلى أن أوشك أهلها أن يساموها .
وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان العير المتطاير من
زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم ، فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية :
(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها
ببعض ، وكانت المعركة من أهول ما تتصوره العقل ، وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه
ينطف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفتح الهائج لا يرد رأسه شيء
أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه ، فهاهو إلا أن أصابته طعنة
خرّ بها صريحا عن جواده . فلما رآوه المسلمون مجذلا (٣) فت في أعضادهم ونكصوا على
أعقابهم ، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الورا . وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من
سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان الساميين المغاور الذين شهدوا الفتوحات السابقة .
ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمح وتقمقر العرب ، عبدالرحمن (العاقبي) وعاد
به إلى الأندلس (٤)

(١) Toulouse

(٢) Aquitaine

(٣) جاء في « بغية الملتمس في تاريخ رجل الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف

الدين : السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوي ؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في

ذي الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانيولي وايزيدور الباجي والستاز السكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبّت الحماسة في قلوب أهالي اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم ، الا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة، وأضت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بنزائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار مملأى بالنفائس والذخائر، فلم يكن من العجب أن تتوجه همة العرب قبل كل شيء الى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان . ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاريخنا ملآن بقصص تدمير العرب للأديار والسبيع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذاك انما كانوا من الرهبان والا كايريكين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلّ بأديارهم وتقديمها على ديارهم

فقد جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل »^(١) بقرب « بيزيه »^(٢) ودير القديس « بوزيل »^(٣) بقرب « نيم »^(٤) ودير « صنجيل »^(٥) بقرب « آرل »^(٦) . والدير المشهور بالثروة المسمى بدير التريل^(٧) بقرب « آغيمورت »^(٨) . وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة في التريل فلا ينقطع التريل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بغتة، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهايين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواساك التي فيها كتاب مؤرخى فرنسة

Jaucels (١)

Beziers (٢)

Saint-Bausile (٣)

Nimes (٤)

Saint-Gilles (٥)

Arles (٦)

Psalmodie (٧)

Aiguemortes (٨)

الا أن يخلصوا ، نجياً برقابهم ويبيع ذخائر القديسين التي كانت عندهم^(١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونها^(٢) وكانت بعض عصابات من أهالي البلاد تقاتل العرب في الاحايين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه في سنة ٧٢٤ تولى امارة الأندلس عنبة (ابن سحيم السكابي)^(٣) واجتاز جبال البيرانية بجيش جرار ، وأوغل في البلاد ، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها رهائن أرسلهم الى برشلونة^(٤) وقد كانت فتوحات عنبة بحسب رأى ايزيدور الباجي فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف في أيام عنبة خراج بلاد الغال . وقيل ان عنبة نفسه قد زاد الخراج على الأهالي ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وانما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تديره . ثم ان عنبة وقع قتيلا في احدى الوقائع سنة ٧٢٥ فخلفه في القيادة « حديرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ريح الاسلام فعمصفت ببلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخي العرب . فالسبتيمانية الى حدود الرون و«الالبيجوا»^(٥) و«الروورغ»^(٦) و«الجيفودان»^(٧) و«الامبيلاي»^(٨) سارت ميداناً لغارات العرب . وشملها الخراب من كل جهة . ومالم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينار Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن النوري

(٣) جاء في بغية الملتمس في « تاريخ رجال أهل الأندلس » لاجد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلي :
عنبة بن سحيم السكابي كان أمير الأندلس في سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية في أيام همام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخي بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

(٥) Albigeois

(٦) Rouergue

(٧) Gevaudan

(٨) Velay

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا العيث الزائد في تلك البلاد . فانهم لم يكونوا يعفون عن شئ سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيل وكل ما يزدادون به قوة على قوة وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة « روديس »^(١) فقد احتل العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكريف »^(٢) والآخر حصن « بالاغيه »^(٣) وأخذوا يحتاجون جواره ولا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون »^(٤) عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي، وعادوا الى الحصن الذي كانوا تبوءواوه، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه، ووقفوا أمام باب الحصن، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس يبارح حتى ينقذها فأجابه واحد من العرب : إن شئت أن نرد عليك أمك فادفع الينا الجواد الذي أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرج به من عقله : انعلوا بأبي ماتريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأمر دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن الى ما بين يدي ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه تزهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح : ياللاخذ بالثار . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس، وأقام على ضفاف وادى « دوردون »^(٥) في المكان الذى بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كونك »^(٦)

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولدس نيغلوس »^(٧) التى

Rhodés (١)

Roqueprive (٢)

Balaguiet (٣)

Dadon (٤)

Dourdon (٥)

Conques (٦)

Ermoldus Nigellus (٧)

نشرها في موراتورى^(١) ثم البدون بوكيه^(٢) في مجموعة مؤرخى بلاد الغال، ثم
المسيو بيرتس^(٣) في تاريخ الجرمانيين . وقد جاءت هذيم الحادثة في البيت
المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس » وليس يوجد في القصيدنة ولا في تاريخ
دير « كونك » ما يدل على السنة التى أغار فيها العرب على « رورغ » ولكن
إذا عرفنا أن دادون مات في أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذى وقعت فيه هذه
الحادثة . فأما دير « كونك » فقد بقى قائماً الى زمان الثورة الفرنسية

ولندكر حادثاً آخر يدل على ما بلغت من الفجائع تلك الغارات التى كان جانب
عظيم من فرنسة مرزحاً لها، وهذا الحادث وقع في دير « موناستيه^(٤) » في جهات
« فيلى^(٥) » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوى^(٦) » و « كليرمون^(٧) »
وكنيسة « بريود^(٨) » ثم أشرفوا على دير « موناستيه » فجمع القديس « شافر^(٩) »
رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الاعلاق
النفيسة والذخائر التى فى الدير ويتواروا فى البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات
أحسن فيعودوا فيها الى متبوتهم الأول . أما هو أى القديس المذكور فقد أجمع أن
يقتى فى الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى
الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردى بالأحر من أثواب الشهادة:
فأخذ الرهبان ييكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Bauquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

Saint Theofroi وكان يقال له أيضاً Saint Chaffre (٩)

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرَّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضروري لا سيما إذا كان في السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذي كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره في دمشق للاقتصاص منه ، ففر منهم ونزل ليلاً في زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخاص نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق في إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فاني لست بذهاب من هذا الدير ، فان من واجبات الراعي أحياناً أن يضحي بنفسه في سبيل خلاص رعيته ، وانى إن سال دمي هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهي الثائر بدون شك من خطايا البشر فلما رأى الرهايين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التي في الدير خرجوا إلى البرية ، وتغلغوا في الغابات ، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة في زاوية من الدير ، فلم يأبهوا له ، وانما أخذوا يطوفون في الدير أملاً بالعثور على شيء يغنمونونه ، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنناً وأقواهم بنية ليبيعوهم في سوق النخاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فرّوا بأسرهم وأنه لم يبق في الدير شيء من النفائس التي كانت تحمدتهم أنفسهم بها استشاطوا غضباً وانهلوا على القديس بضرب مبرح

وكان في ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله ، ولم يقل المؤرخ الذي ننقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا في ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصابة التي أغارت على كورة « فيسلاى » لم تكن عصابة مسالمة ، ولكن عصابة بربرية لا يزال أهلها غائصين في لجج الوثنية . فلما رأهم القديس قد انتبذوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الاكوان الذي لولاه لم يكن شيء في هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشياً عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه الى الحضيض ، ولكن يقول المؤرخ انهم بينهم يهيمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم زيجاً صرصراً عاتية وصبوا على حجرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا تزال الكنيسة تحتفل بعيد القديس « شافر » في ١٩ أكتوبر من كل سنة . وأما الدير المذكور فقد بقي قائماً الى زمان الثورة الفرنسية الكبرى

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفيني »^(١) وعلى مدينة « ليون »^(٢) وعلى بلاد « برغونيا »^(٣) وقد ذكر أحد مؤرخي العرب هذه الغزوات قائلاً : إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان . ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤمنون العباد الى أن وصلوا الى وادي « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا الى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن المقرئ . ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا هو الوارد في النسخ فان العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلاً عن ابن حيان : إن موسى اصطاح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته ، على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى وافتتح « سرقسطة » وأعمالها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليها وغنمها الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأ من نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام

(١) Dauphiné مقاطعة من فرنسا قاعدتها « غرينوبل » تتألف منها الآن ولايات « الايزير »

و « الدروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى أفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا. وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد أفرنجة فملكته مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آيينيون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً. انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إياها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق. رجع إلى كلام ريتو. قال :

ولا نعلم في الحقيقة الأمكنة التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم إلا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فانه في نواحي «فيين»^(١) على ضفاف «الرون» أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و«ليون» التي يسميها العرب «لودون» رأيت أيضاً تخريباً أعظم كنائسها. وكذلك شمل العيث «ماسون»^(٢) و«شالون»^(٣) وكذلك «بون»^(٤) حل فيها من العيث ما لا يوصف. ووصل العرب إلى مدينة «أوتون»^(٥) وأحرقوا كنيسة «سان»^(٦) نازير» وكنيسة «سان جان»^(٧) ودير «سان»^(٨) مرتين. وكذلك نهبوا دير «سين»^(٩) اندوش» في «صوليو»^(١٠) وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادي «الرون» تبعد ثمانين كيلو متراً عن «غرينوبل» إلى الشمال

الغربي

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلو متراً إلى الجنوب من باريز.

(٣) قسبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهي غير مدينة شالون

على المارن

(٤) Bon مدينة على ٣٨ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من «ديجون»

(٥) Autun مدينة على مسافة ١٠٦ كيلو مترات إلى الشمال الغربي من ماسون

Saint-Nazaire (٦)

Saint-Gean (٧)

Saint-Martin (٨)

Saint-Andoche (٩)

(١٠) Saulieu قسبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز^(١) » بقرب « ديجون^(٢) ». وقد استشهد « رينو » على هذه الحوادث بتاريخ « مواساك » من مجموعة مؤرخي بلاد الغال وبتاريخ « اللون^(٣) بلانشيه » المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانيا^(٤) » ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا ، وقالوا إنهم بثوا سراياهم إلى جهات نهر « اللوار » وأخرى بقرب « نيفير^(٥) » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش^(٦) كونتى »

وقالوا إن دير « سان^(٧) كولومبان » قد دكّه العرب في تلك الغزوة ، وأنهم قتلوا أكثر الرهابين والقسيسين الذين صادفهم في « بيزانسون ». قال « رينو » : وليس في هذه الروايات شئ لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة « فرانش كونتى » التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة . وقالوا أيضا ان الدير الذى فى سفح جبال « الفوج^(٨) » المسمى بدير « لوكسول^(٩) » قد جمده العرب أيضا أترأ بعد عين ، وذبحوا الرهابين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس « ميلين^(١٠) ». نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب « لكوانت^(١١) » ونقل أيضا عن « ماييون^(١٢) » وقال : يظهر ان المسلمين لم يجدوا مقاومة

(١) Beze

(٢) Dijon قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو متراً من الجنوب الشرق من باريس

(٣) Plancher

(٤) Gallia Christiania

(٥) Nevers

(٦) Franche-Comté مقاطعة فى شرق فرنسا ، قاعدتها « بيزانسون » تحتوى على ولايات

« الصاوون » العليا و « دويس » Doubs و « جورا » Jura

(٧) Saint-Colomban

(٨) Vosges

(٩) Luxeuil

(١٠) Mellin

(١١) Lecoite

(١٢) Mabillon

حقيقه إلا أمام مدينة «سانس»^(١) فان هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له « ايول »^(٢) « اشتهر بالفضائل والكاملات حتى جعلوه في مصاف القديسين . فهذا المطران عندما سمع بإيجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهياً أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنيقاتهم كان أهاليها يرمونهم من أعالي الأسوار بأجزاء محرقة . كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية قال « رينو » : إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بان أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين^(٣) ولائمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال»^(٤) وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على الحجار عند ما جاء هؤلاء الى المانية ودخلوا الى فرنسة واكتسحوا «الانزاس» و«اللورين» و«فرانش كونتى» و«برغونيا» و«شمانيا» وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق مجئ العرب إلى فرنسة وتغلغلهم في أحشاء البلاد وانهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيتهم ومراميتهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسة الا مقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسة عن اسبانية في هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم الى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما في فرنسة فاذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الواجهة والنبالة رضيت بأن تنحاز الى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقي الاهلون متمسكين بدينهم المسيحي لا يرضون به بدلا

(١) Sens قسبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند « Yonnd »

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكيثانية طول هذه المدة منحرفا عن القتال، متجنباً للانغماس في الحرب، لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذى قبل . وأما « شارل مارتل » فكان مشغولاً بمحاربة « الغريزونيين » و « البافاريين » و « السقسون » الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه . وكان بينه وبين « أود » ما بين النظراء الذين يفتن بعضهم ببعض . فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الافرنج فعملوا سكوت « شارل مارتل » الذي كانوا يسمونه « قارله » عن مقارعتهم بالتعليل الآتى . قالوا :

إن كثيراً من أمراء الافرنج فزعوا إلى « قارله » وشكوا له الأضرار التي حلت بهم من عيث المسلمين في البلاد ، وأوضحوا له العار الذي يلحق بها من كون جيش كالجيش العربى ، مجهز بأسلحة خفيفة ، يتغلب على جيوش شائكة باثقل الأسلحة غائصة في الزرد إلى أعناقها كالجيوش الافرنجية . فأجابهم قارله : دعوهم الآن يفعلون فانهم في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذى يجرف كل ما يقف في وجهه ، وهم اليوم قد أخذوا من جرأتهم دروعاً ومن أقدامهم حصوناً ، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم ، وبعد أن يألفوا نعيم الحضر ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق فى صفوفهم ، حينئذ ترحف إليهم وتتغاب عليهم وتترك جمهم شريداً وقائمهم حصيداً . . وقد نقل هذا الكلام « رينو » عن المقرئ صاحب النسخ . ونحن راجعنا المقرئ فوجدناه يقول فى آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية ما يلى :

وقال الحجارى فى المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصرأ ماعليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصرارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارله . وهذه سمة ملكهم . فقالت له : ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم. فقال لهم مامعناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمنلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر. قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمصرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء. انتهى

قلت: إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالمرجون القديم، بعد أن كان تماما وأثار المشرق والمغرب، تعود إلى عاملين كبيرين: أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين، فقد طال بينهما النزاع وتحول إلى فتنة صماء أوقفت سير الإسلام في أوربة. بعد أن مشى فيها مشى النار في يابس العرفج. واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمالى اسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاز الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللامحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالى اسبانية. وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر ووقعوا بهم، انتقاما عما صدر من البربر من قبل، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى، واغتموا أيضاً مثل تلك الفرصة، وقد كان أنكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمانية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعاً وحصوناً وحواضر عاصمة. وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثانى كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن، وكان أولو الأمر

في قرطبة ينزلون لهم عنها (١) . أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطراً عن الأول فانه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها الى الدرجة التي كانت سبباً في الهزائم، فان الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن العافقي و «شارل مارتل» الذي يقول له العرب «قارله» كان سبب إديار العرب فيها وتملص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لا غير، فانه لما تلاقي الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال . ولكنه توجس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتر عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها . وعلم بذلك الأفرنج ولحظوا شدة حرص العرب عليها، فلما حوى الوطيس زحف جانب من جيش الأفرنج من طريق آخر قاصداً المعسكر الذي فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه

(١) قال ابن عذاري في البيان المغرب : قال ابراهيم بن القاسم : وكان أهل قرطبة على حال شدتهم وعظيم محنتهم لاجئين في الفتنة والنهصب على البربر، ومن ذكر الصالح قتل، حتى ان رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع : اللهم اصليح علينا فقتل في مكانه . وقال آخر في الجامع : ان الله أحب الصلح وأسر به، فقتل في الحين . وجاءت امرأة من الفرن فأوقعت قدراً فانكسرت فكانت سوداء فقالوا بربرية سوداء فقتلت «الى أن يقول» : وآتى رسل ابن مامة القومس زعيم لهرانيته يستنجزون تسليم الحصون اليه على ألا يندرم ولا يتعرض لهنى من ثورهم . فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضي وكتبوا كتاباً بذلك

قال : ولما وصل الرسل الى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للتصاري وقرىء على الناس بمحضرة هشام (اي الخليفة) وواضح (أي الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون الى الاسبانيول بشرط أن يظاهروهم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جسيم الحصون التي كان أخذها الحسك بن عبد الرحمن ومحمد بن أبي عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام . هكذا ذكر الرقيق في كتابه .

قال : وسمع اللعين ابن شاذبه أيضاً بما سلم الى اللعين ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً آخر وتوعد وتهدد، فأجيب الى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها اليه . وهذا كله بلجاً في ألا يصالح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق في الميدان قوة كافية لصد السواد الاعظم من الجيش الافرنجى . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذى يسميه العرب ببلاد الشهداء ، ويسميه الافرنج بعمركه «بواتيه» . فأنت ترى أن «قارلة» عندما قال للافرنج قوله ذلك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب

نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول :

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن «الفاقى» الذى خلف السمح بن مالك الخولانى في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» عند مصرع السمح في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً محبباً في جنده ، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لعرفته بالحديث النبوى ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر (١)

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الفاقى في كتاب بغية المتمس في رجال أهل الأندلس، لأحمد بن

يحيى بن عميرة، كما يلي :

عبد الرحمن بن عبد الله الفاقى وهو العكي: أمير الأندلس، وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى صاحب افريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروى عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلاً صالحاً جميل السيرة في ولايته كثير النزوة للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خبر مشهور، أخبرنى أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المدينى سماعاً عليه ، أخبرنا على بن منير الخلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن احمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعنى ابن عبد الله العكى إفرنجية وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بها فكسرت ثم أخرج الخمس وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك عبيدة يعنى ابن عبد الرحمن القيسى الذى هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً . انتهى . وسندكر في متن الكتاب شكلاً أخبار عبد الرحمن الفاقى رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقي التي سنتنتهي بوافية بلاط الشهداء
ينبنى لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين امارة عنبسة بن سحيم السكابي
وامارة الغافقي ، فنقول : قال المؤرخ الاسبانيولي « كوندى » : إن أول عمل قام به
عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المساهين بدون تجاوز على الأراضي التي
لها ملاكون أصليون من الأهالي ، فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا للدولة
العرب من أنفسهم ، ويستوفي الخس من لم يخضعوا الا بالسيف . وهو الذي بنى
جسر قرطبة (١)

وطاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين
الأديان . ثم إن أهالي « طرسونه » انتفضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم ،
واقصص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة .

ثم أغزى جيوشه بلاد افرنجية ، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا
كثيرا ، وقيل إنه كان يكره هذا العيث في بلاد العدو ، إلا أنه كان يدارى جنده
ويحذر أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية (٢) . قال « كوندى » : ثم انه في ذلك الوقت
خرج في سورية نبي كذاب اسمه « زوناريا (٣) » كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود .
فلما سمع بخبره عرب الاندلس ، وكان كثير منهم من أهل الشام ، صدقوا مقاليته هذه
وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها ، وعادوا إلى سورية
بجفان ، فضبط عنبسة الأملاك التي تركوها ، وحوطها لبيت المال . ثم في السنة التالية
غزا عنبسة بلاد فرنسة ورائقه النصر في أول الأمر ، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون ان باني جسر قرطبة هو سلفه السحيم بن مالك الخولاني ، ولعل
عنبسة أكمل بناءه بعد قتل السحيم

(٢) لا شك أن الغافقي بمسكانه من مهنة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت
وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب في الاسلام ولو في بلاد العدو وقد
نص على ذلك الأئمة بالصراحسة ، وغاية ما شدد الشددون منهم هو أنه يصبح اذا بدأ به العدو ولم
تبق للسلمين حيلة الا بمقابته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذي رواه كوندى ، وثقله عنه ، رينولم نسج به حتى الآن وهو من
أغرب ما سمع من الأخبار . ونظن أنه ان كان له أصل فيكون في المجتمع اليهودي لا المجتمع الاسلامي

البسائط حتى عبر نهر «الرون» الى الشرق، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثنخناً بجراحات كثيرة، مات على أثرها، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة. وقبل أن مات استخلف حديرة الفهرى، فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة، لأن أمير افريقية أرسل أميراً على الأندلس يحيى بن سلمة^(١). وكان هذا قائداً مجرباً محباً للعدل صارماً جداً في اعطاء الحقوق لأصحابها، فهاهه المسلمون والمسيحيون معاً. وبينما كان يطوف في الولايات الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابهم إلى ماسألوا وأرسل أميراً على الأندلس عثمان بن أبي نسعة^(٢) وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب، فتولى الامارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عوداً صليياً وقناة لا تلين لغامر ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا منه ما أمض وأر مض، فما زالوا يسعون به كما سعوا. بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاماً على صرفه بمخديفة بن الأحوص^(٣) فلم يقيم هذا الا قليلاً، وعاد أمير افريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه، ولكن ولاءه وكيلاً لا أصيلاً، إلى أن قدم من دمشق بأمر الخليفة الهيثم بن عبيد الكنانى^(٤) وكان الهيثم شامياً ولكنه كان فظاً بنحيلة جاسياً، فأسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فالقى بهم في السجون وأهلك بعضهم.

(١) فى نفح الطيب أن يحيى بن سلمة الكلابى أفنذه بمر بن صفوان الكلابى، والى افريقية، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام فى ولايتها سنتين ونصفاً.

(٢) الافرنج يسمونه «مونوزه» Munuza وهكذا جعلوا ابن أبى نسة محرراً الى «مونوزه» ويقول «رينو»: ان كلا من الافرنج والعرب يعرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الانسان أصلها (٣) فى نفح الطيب أن عثمان بن أبى نسة اللخمي قدم والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخسة أشهر بمخديفة بن الأحوص القيسى

(٤) فى نفح الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى أمير افريقية وأنه وصل فى المحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ١١٣ لسنتين من ولايته. وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعى فولى شهرين. ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله ابن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفريقية الخ.

وكان من جملة المنكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير في الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهي بيوار الأمة والخطوب المدلومة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كون الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذي يراه الأصلح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألقاه في السجن واطلق الذين كان نكبتهم ورد عليهم أموالهم . ويقال إنه قبل أن نفي الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه في شوارع قرطبة راكبًا على حمار ، تشهيرًا له ونكالا وفاقًا وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن النافقى فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن النافقى لما كانوا سبروا من نجابته ومن مزاياه العالية . ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبي نسعة الذي كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق بثلاث سنوات عن رواية نفتح الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم وابتداء الحقوق أصحابها . ولأجل أن يتمكن من تسكين الدماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلاد بلديباشر اماطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والمسيحي، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التي كانوا انتزعوها من أيديهم والتي كان لهم الحق بها وفقاً للمهود ، كما أنه هدم الكنائس التي كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للمهود .

ولم يكن يهدأ له بال الا بنزو فرنسة حتى يدونها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التي كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشاً جراراً من نخبة المقاتلة والصابرين في الحروب، واستنجد أمير افريقية فأرسل اليه بمجنود مختارة للجهاد، تتلظى شوقاً الى الجلال . ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن الى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبي نسعة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالفارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقعة شديد البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحاً الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسة وقعت في يده ابنة « أود » دوق ا كيتانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه (١) » ويقال ان اسمها « مينين (٢) » ولكنها كانت مشهورة باسم « لامبيجيه (٣) » وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونة (٤) » أرملة الملك « لنديق » فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسهه صهراً لدوق « ا كيتانية » عقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها « دوق ا كيتانية » غارات العرب ولو الى مدة من الزمن . فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن النافق الى الأمير عثمان بن أبي نسهه بالزحف على بلاد حميه « دوق ا كيتانية » وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكه عثمان عن الزحف ، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له ، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة . فلما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن أعمال الغارة في بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع (٥) حتى يأخذ حذرهم ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان . فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان ، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

Numérance (١)

Minine (٢)

Lampégie (٣)

Egilone (٤)

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة في أحد منافذ جبال « اليرانه » أو « البرانس » والمؤرخ « كوندى » يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Cerda » وهذا الرأي موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذي يقول ان عثمان بن أبي نسهه كان أميراً في « سرده » ويقول آخرون إنه كان في الطرف الغربي من مقاطعة « روسيون » Rousillon في المحل الذي يقال له « سردانه » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عثمان بن أبي نسعة ويرسله اليه، وان أبي الطاعة يهدر دمه . فوصل ابن زيان بعسكره بغتة الى مقر عمان، وهو ينوى القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجيه» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتنفرق عنه أصحابه في تلك الأوتار ولم يبق معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنهما دفاع الأسود حتى أردوه قتيلًا، وفي جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء الى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلاً : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس . وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ . ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة الى دمشق هدية للخليفة ، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لمبيجيه» ابنة دوق « اكينانيا » في حرم الخليفة الأموي في الشام (١) . ولما وصل خبر مصرع عثمان الى دوق « اكينانية » علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال « البيرانه » اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكتمسح الأرضين من « نافارا » (٢) الى « بوردو » (٣) وامتلات أيدي المسلمين بالفنائم . ولما وصلوا الى « بوردو » حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسا . وكان الى شمال هذه القرية على جبل منفردي في حذاء « البيرانه » حصن قديم يُقطن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب

(١) قال السيوي « دومارليس » صاحب الحواشي على تاريخ « كوندى » الاسبانيول: إن هذه الواقعة هي السبب في قول السيوي « شينيه » Chenier بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفراسية . قالت: وليس هذا القول خطأ لأن « أود » دوق « اكينانية » أي ملك بلاد الغال في عصره كان ينتسب الى « كاوفيس » أول ملوك فرنسا

(٢) Navarre هي إمارة في شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها « نافارا » وأحياناً « نبرا »

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسا على مسافة ٣٧٨ كيلو متراً الى الجنوب الغربي من باريس، وهي قاعدة مقاطعة « الجيروندي » التي كان العرب يقولون لها « جيرندة » وكانوا يقولون لمدينة « بوردو » بورديل

وكان الأهالي الذين وقعوا في اليد يفدون أنفسهم بالمال . وأما أمير «بوردو» فقد قتل في المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم الى الشمال فوجد دوق «اكتانية» في طريقه يحاول صده في مضيق «دوردون»^(١) غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء ، فانهزم «أود» وفر بجيشه ، وقطع أملة من ملكه ، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتيل» من الأحقاد والضغائن ، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن «شارل مارتيل» أو «قارله» إلا إجابة «أود» لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة ، إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الأفرنج لما كانوا وقفوا إلا على ساحل البلطيق

فامتد الصرخ في كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت لواء «شارل مارتيل» وبقى العرب يتقدمون الى أن وصلوا الى قريب من مدينة «تور»^(٢) وهناك علم عبد الرحمن الغافقي أن جيشاً عظيماً زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلاً حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر الى الجيش بترك جميع ما في أيديهم من الغنائم والأسلاب ، ولكنه خاف من إغضاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفتت همتهم وتلقس نفوسهم ، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كمن في نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر «تور» وأخذها عنوة بمشهد من جيش «شارل مارتيل» وخيم بساحتها . ولما دخل العرب المدينة أسرفوا في القتل والنكابة . ثم تلاقى الجمعان بين «تور» و«پواتيه»^(٣) وكان عبد الرحمن هو البادىء بالناجزة فاستمرت

(١) Dordogne والمؤرخ «كوندى» الاسبانيولى يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادى «الغارون» ولكن «دومارليس» الذى حصى كتاب «كوندى» يقول إن أكثر المؤرخين الافرسيين يجعلونها في مضيق «دوردون»

(٢) Tours من مدين فرنسة المشهورة واقعة على نهر «الوار»

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من باريس

المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للأفرنج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعركة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، ينامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، الى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكصوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الأفرنج فيهم القتل وطرحوا منهم بالمراء أوفاً وما زالوا يعملون في أقتيتهم السلاح الى «أربونة»^(١)

فلما وصل خبر هذه الفاجعة الى الأندلس والى افريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير افريقية بارسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن النافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندى»: ان المؤرخين من الأفرنج لم ينفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ١٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندى» يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكابة بهم لحفظوا جيداً تاريخ وقوعها. فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولسكن الذي في نفع الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢

قال: بهي مكان الواقعة. فبعض المؤرخين من الأفرنج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على بحس مراحل من «تور» والآخرون يقولون بل جرت بقرب «بواتيه» ومؤرخو العرب يذكرون انها نشبت على ضفاف نهر «أوفار» Ovvar وربما قصدوا بذلك نهر «فين» Vienne الذي ينصب في الاوار. ويقول العرب إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الغنائم في الخيم وراهم فانصرف فريق من الأفرنج وهاجموا الخيم فذاع العرب على الغنائم التي فيه. وبينما المعركة في أشد ممانتها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم ورجوعهم هذا خلفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجح الكفة الواحدة على الكفة الأخرى. فعبد الرحمن كان حسب لقضية الغنائم هذه حساباً كبيراً وخاف أن تكون سبب هوار العرب ذلك اليوم فوقع فيما خاف منه

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الغافقي وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرّد معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثار وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفي نيته أن يأخذ بدحل المساهين ويجبر الكسر الذي وقع، ولكن هيهات فقد كان باغ بالمساهين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد في استنهاض همهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منسرحة وآمال غير منفسحة . وكيف يقا تل جيش تعوزه القوة المعنوية . فانهزم جيش عبد الملك في جبال « البيرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تديره في حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتنص لهم من الأقوياء، وأمر الولاية بتجنيد فرق من الجنّد أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيراً من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لا يميز في المعاملة بين أصناف رعيته . وبالأجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قائل فيه مطعناً . ثم نظر في سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذ به، فجعله أميراً على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان في نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار (١) امثالاً لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة » .

(١) وأما في نفتح الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحجاج فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى باغ سكنى المساهين « أربونة » وصار رباطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانيولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه في غياب الامير عقبة في افريقية وقع الخلل في إدارة الاندلس وصار كل أمير يعمل بما يعن له ووقت الفوضى ولم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام في جيشه وأن يسد الثغور . وفي ذلك الوقت اشتهر الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطرّدوا العرب الذين يلونهم.

جاء الخبر بأن البربر في افريقية ثاروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتنكيل بهم ، وأن يعبر البحر الى طنجة ، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب في افريقية

وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية . وفي آخر هذه السنة توفي « بيلاي » بطل « استورية » الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما بقي من قوة الاسبانيول في وجه العرب بعد أن استصفي هؤلاء جميع اسبانية واخذوا على ملك المسيحيين بها ، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال « استورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمنارة جعلها مركز قوته المنيع ، ولم يرح معتصماً بذلك النار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه وهو بمنجاة من العرب ، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة . وسندكر في الجزء التالي جميع ما يتصل بنا علمه من خبر « بيلاي » هذا ، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعد الآن الى تاريخ « رينو » عن غزوات العرب في فرنسة ، ولنمهد لكلامه بما يلي :

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن أترجم للقاري

وتقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك اليهم بمجيئه وهزمهم واضطروهم الى الرجوع من حيث أتوا . ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة في أسوأ حال وليس هناك أمير كفؤ للإمارة قائم بالواجب عليه غير عبد الملك النهري فسكب اليه عقبة أنه لا كان طراً عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب الى الخليفة بأن يوليه مكانه . وهكذا كان . ومات عقبة في قرطبة وبكاء الجميع بدون استثناء نهاراً لحسن سيرته

بطلي هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي العربي و « شارل مرتيل » الافرنجى الذى يسميه العرب « قارلة » وأذكر خلاصة خبرهما، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التى أدت إليها ونشأت عنها .

« فشارل مرتيل » هو ابن « بين ديريستال ^(١) » مولده سنة ٦٨٩ كان اتهمه أبوه بقتل أخيه الذى كان من غير أمه فاعتقله فى كولونية ^(٢) وما زال إلى أن مات أبوه بين سنة ٧١٤ فى الاعتقال فثار الأسترازيون أى أهالى القسم الشرقى من المملكة الميروفنجية الافرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقاً عليهم وتغلبوا به على أهالى القسم الغربى من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلبريك » الثانى أن يتخذ شارل حاجباً فتسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك « شيلبرك » الثانى والملك « تيتري » الرابع كما كان المنصور بن أبى عامر فى الأندلس مع الخليفة الأموى هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسى أو كما هو القيم العام الذى يجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها فى هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الاسم . هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يهدد البلدان التى تليه ويدوخ الشعوب التى فى جواره فقهر السكسون والبافارين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق اكيثانية قد هاجمه فدحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التى بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أى المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب فى واقعة « پواتيه » أو بلاط الشهداء . جاء فى « المعلمة التاريخية الافرنسية لغرينوار وموريس فال ^(٣) » ما يلى : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتيانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق اكيثانية فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازين

Pepin D'heristal (١)

Cologne والالمان يقولون كولن (٢)

Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl (٣)

والمقاتلة التي جاءت من وراء الرين، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيماً بين «تور» «ويواتيه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الواقعة تلقب بمارتيل، وهي لفظة معناها المطرقة. ثم إنه بسط الملك الافرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون، ودخل سبتيانيا، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى، لكنه لم يقدر على أربونه التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بين القصير. انتهى.

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلقب الملك، وترك سبعة أولاد ذكور، أشهرهم بين وكارلومان، فتقاسم هذان الملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافق فهو أمير الأندلس. كان مع السمح بن مالك الخولاني في غزاة طولوزة بحسب رواية «رينو» ولما استشهد السمح رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازي للافرنجة، وقفل به إلى الأندلس وآلت إليه الإمارة فيما بعد. وقد ذكرنا في حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية المتمس لابن عميرة. ولندكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول:

يقال له الغافقي نسبة إلى غافق وهي قبيلة من الأزد وهو ابن الشاهد بن عك. ابن عدنان بن عبد الله بن الأزد. وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليههم ينسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة. وجاء في تاج العروس أن لهم خطة أيضاً بمصر. وذكر ياقوت في معجم البلدان غافق، فقال: إنها حصن بالأندلس من أعمال فخص البلوط منها أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣. وقال المقرئ في نفع الطيب: إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد، قال ابن غالب: من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب. وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق. انتهى

قلت: ومن العلماء المعروفين المنسوبين إلى غافق عبد العزيز بن علي بن عيسى بن سعيد.

ابن مختار الغافقي أبو الأصبع المعروف بالشقورى المتوفى سنة ٥٣١ هـ ترجمه ابن بشكوال
فى الصلة وابن الأبار فى التكملة

ومنهى عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقى أبو سفيان وفد على سليمان بن
عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها فى قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج

وعبد الرحمن بن شريح

ومنهى أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حججاج الغافقى الاشبيلى وهو الذى جاور
بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لى سؤال ولا مطاب مذ صرت جاراً للحبيب الحبيب
لا أبتغى شيئاً سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره فى نفح الطيب

ومنهى أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقى الألبيرى الزاهد : كان من أهل الحديث
والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها
فى شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره فى النفح أيضاً.

ومنهى محمد بن عيسى بن دينار الغافقى من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج
وحضر افتتاح أقریطش « أى جزيرة كريت » واستوطنها. قاله الرازى.

ومنهى اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقى : من
أهل بلنسية أصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفح
الطيب، وقال : إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه « المغرب فى
أخبار محاسن أهل المغرب » جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار
المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسةائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .

ومنهى أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقى الاشبيلى الشهير بالمسيلى : رحل
حاجا وقفل إلى بلده. ذكره صاحب النفح .

ومنهى أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقى :
أندلسى سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال المقرئ : ماسمت بمالكي معتزلي غير هذا . توفي سنة ٤٠٤ ذكره ابن عساكر .

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي من أهل المرية نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخاري آخر الحججة سنة ٥٥٥ ذكره صاحب النفع . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الغافقي ، أمير الأندلس ، فقد ذكر المقرئ في النفع نقلاً عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام الممدودين . كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتماً بأخذ ثأر المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسا يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غليانها ، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية ينجس أراضيها واعتدال هوائهما أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقتص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريباً وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن العهد المعقود معهم

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لهما ، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشيء ، وذلك أن

القائد الذي كان في سردانة من جبال البيرانية كان بحسب رواية إزيدور الباجي ولذريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الإفريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس. وكان يسمى « مونوزه » وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان في مبدأ أمره صارماً جداً في معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه « أنا مبادوس » فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع « أود » صاحب جنوبي فرنسا الذي لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة « لمبيجيا » وكانت فتاة بارعة في الجمال ^(١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى « كوندى » الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب ، فجعل « مونوزه » هذا محرفاً عن عثمان بن أبى نسعة ^(٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن الغافقى على الامارة ويرى نفسه أولى بها . وروى « كوندى » أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة فى إحدى غزواته فسباها فى من سبا وهام بحبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع « أود » أيبها، ثم لما حملة عبد الرحمن على شن الغارات فى بلاد إفرنجة اعتذر « مونوزه » أو ابن أبى نسعة بوجوب مراعاة الميثاق الذى بينه وبين « أود » فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه « أود » ليكون على أهبة ضخمة فى وجه عبد الرحمن، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى « البيرانية » وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أوميتاً . فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فر ومعه زوجته الحسنة الى الجبال ، فتأثروه الى حيث ثقفوه ، وتغلبوا عليه واحتزوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق . وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة « لمبيجيا » التى دخلت

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا اود بأنه هو الذى دعا العرب إلى فرنسا . وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقعة باود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هو عربى لخمى كما يظهر من كتب العرب . وهو الذى تزوج بابنة « اود » أمير بلاد الغال بحسب رواية « كوندى » الاسبانيولى ومؤرخى العرب . فأما ما يقوله « رينو » من أن صهر الأمير « اود » لم يكن عربياً وإنما كان بربرياً اسمه « مونوزه » فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولا ذكر شيئاً من تاريخ « مونوزه » هذا الذى سماه .

في حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ايزيدور الباجي ولوذريق شيمينييس ، ثم روي
أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسة كانوا قبل واقعة « پواتيينه » غزوا مدينة
« آرل »

قال « رينو » : وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة
ولكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت
تصعد به السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخي الافرنج ان حملة العرب على مدينة
آرل لم تكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية
وهي الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف
ويكتب الكتاب ويعي الجنود ، توجه الى جبال البيرانيه . وكان جيشه جراراً يرج
الارض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة
٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية « بيغور ^(١) »
و « بيرن ^(٢) » يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم
العرب الكنائس والأديار مثل دير « سان سافين ^(٣) » بقرب « طارب ^(٤) » ودير
« سان سيفر دورستان ^(٥) » في « بيغور » وخرّب العرب « آير ^(٦) » و « بازاس ^(٧) »
و « اوليرون ^(٨) » و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا ^(٩) » بقرب بوردو . ثم
افتتحوا بوردو ^(١٠) عنوة . وأقبل اوددوق اكيثانيا بجموعه محاولاً صدّهم في ممر

Bigorre (١)

Béarn (٢)

Saint - Savin (٣)

Tarbe (٤)

Saint - Sever - De - Rustan (٥)

Aire (٦)

Basas (٧)

Oleron (٨)

Sainte-Croix أي الصليب المقدس (٩)

Bordeaux (١٠)

دور دفاون^(١) نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجي^(٢) قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم . فلما رأى أود أن لا طاقة له بالثبات أمام العرب استنصر شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والالبا^(٣) والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلوا حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير «سانت إيميلين»^(٤) وكنيسة «سانت إيلير»^(٥) في بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة «تور» التي كان فيها دير «سان مارتين»^(٦) المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيل بجيوش الافرنجة . فقلما ذكر التاريخ معركة لها مابعد ما مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديانتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم ، وكان المسامون من جهة أخرى معتقدين أيضا أنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، خلا ما كان يهتمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخا عربياً روى ان عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وانه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ - وهو في مأزق كذلك المأزق - أن يغيظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقى واثقا بشجاعتهم وييمن تقييته في القتال . فكان لترده هذا تلك النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجوا مدينة تور ،

Dordogne (١)

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شهير في المانية

Saint - Émilien (٤)

Saint - Hilaire (٥)

Saint - Martin (٦)

بمرأى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثل النمر الكاسرة على أهلها فذبجهم ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو المسيحيين فكانت رواياتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هذه الرواية العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لذريق شيمينيس الذى كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها وقعت فى احدى ضواحي « بواتيه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتيه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من حروب اتسق لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلى مراجلها ويزيدها فيهم وجود شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلثة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة ، يحاولون بها خرق صفوف الافرنج فكانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران فى ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين ، اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن ان قائدها كان اود دوق اكيثانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على مخيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا الى الخيم ليستخلصوه من أيدي الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفئين ويسوى الصفوف ، فذهب اجتهاده عبثاً ، وأصابه سهم من جهة العدو فخر صريعاً . وعند ذلك وقع الفشل فى صفوف المسلمين ، لكنهم تمكنوا من تخلص مخيمهم من أيدي الأعداء وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فخال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً .
وذلك أنهم لما رأوا ما حل بهم سروا في أحشاء الليل وانحازوا إلى الورا قاصدين جبال
البيراة . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة
في الأرض

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقلع بقضه وقضيضه وزع على عساكره
ما وجدته في مخيم العرب من الغنائم المركومة ، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم
قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الورا استدراجا ومكيدة ، أو
أنه قد أمن بعد هذه الواقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شراً . فلذلك قطع نهر
اللوار، راجعا إلى الشمال، مفتخراً بما أحرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه
بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لثباته ولما سد به بنفسه من الثلم التي كانت تقع في جيشه
ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين
الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفاً، فإن المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم
صرعى، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد
كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع . ثم على فرض المحال وأنه كان ممكنا
جشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن إيجاد الميرة اللازمة لهذه الفياق الجرارة
في البلاد التي تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والرزايا . نعم لا ينكر
أن هذا الجيش الذي قاده عبد الرحمن العافقي ، تلك النبوة ، كان أعظم جيش وأحمس
جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسلة ، وأدل
دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر
لمقابلة ذلك الجيش العربي المغير ، وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع
في أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعاونون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر
مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ما ذكر العرب أن عدداً كبيراً من رجالهم استشهدوا
في بلاط الشهداء وهو الاسم الذي أطلقوه على تلك الواقعة . ويقولون انه لا يزال يسمع
هناك دوى خفي هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

القدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم

قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفاً فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً كل مامر به ومن جملة ذلك دير سولينياك^(١) . وقيل ان الافرنج عند ما انكفاً العرب أعمالوا في أقتيهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة^(٢) وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفاً جداً بين المسلمين والمسيحيين ، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صراهم ، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء منهم يقولون ان ما حل بهم من الادبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم وامعائهم في ركوب أهوائهم

وكان النائب في الامارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبر بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق . فارتضى الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك^(٣) وجهز معه جيشاً وأمره بالأخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على الأندلس ، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغد بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب في الغزاة والمرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرائهم ويبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد رفعوا رؤسهم بعد هذه الواقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخى العرب أن جيشاً من الفرنسيين قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بابلونه وجيرونه أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولاً الى كتالونيا واراغون ونافار^(٤) ثم تقدم

(١) Solignac

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يظاً أذيالهم لشدة ما كان لهم

من الرعب في قلوب الافرنج

(٣) هو عبد الملك بن قطن الفهرى

(٤) كتالونيا هي بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونة . واراغون هي مملكة شمالى اسبانية

على الشرق . ونافار هي من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نبرونه

الى بلاد اللندوق^(١) وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين ، ثم أبعد المغار في بلاد العدو . وكانت بلاد « السبتيانيا » و « بروفانس » في حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذي طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضون تحت جناح دوق أكيثانية والآخرين يتفياون في ظل شارل مارتل ، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا في الحقيقة انما يريدون الاستقلال باماراتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدون يداً واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة ، وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار . ومن هؤلاء الأمراء « موروند » الذي كان يلقب بدوق مرسيلية والذي كان بيده أكثر مقاطعة بروفانس

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولاً ببسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون ، حيث كان المسلمون قد شنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفريزون^(٢) » فشنغوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسيلية وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرن واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والندراء^(٣) وهدموا قبر سان « سيزير^(٤) » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس ، وحاصروا مدينة « فريتا » المعروفة اليوم « بسان ريمي^(٥) » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينيون » وعبثاً حاول مقاتلة « آفينيون » صد المسلمين في ممر « دورانس^(٦) » فان المسلمين ذللوا كل العقبات . وكانت « آفينيون » في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات ، وهو المكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون . وقد بقى المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات

(١) Languedoc

(٢) Frisons شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهرالرين الأدنى

(٣) Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge

(٤) St- Césaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

(٥) Fretta, aujourd'hui St Remi

(٦) Durance

محتلين بلاد « بروفانس ^(١) » وكان « أود » دوق أكتانيا قد توفى سنة ٧٣٥ فجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور وأما الأمير عبد الملك ^(٢) فبعد أن أهب الله له ريح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال البيرانية ، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان ، فصادفته أنواء وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة ما أصابه قلده إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة ^(٣) ولم يبق في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار البيرانه

وكان عقبة هذا رجلاً يتقدح حمية على الاسلام ويرى في الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار إمارة الأندلس جبا بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفي أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالقاتلة . وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينييه ^(٤)» فغربوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و «دوزير ^(٥)» واحتلوا «فالانس ^(٦)» وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة « فيين ^(٧)» على ضفتي الرون قاعا صفصفا

(١) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تخبر عن هذه الواقعة وهي باللاتينية كما لا يخفى لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر . فن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير « مواساك » « Moissac » ومجموعة مؤرخي فرنسة « Recueil des Historiens de France » وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون « Papon » وذكر أيضا لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والافرنج على مر « دورانس » كتابة لاتينية كانت في كنيسة بقرب « بونبا » « Bonpas »

(٢) أي عبد الملك بن قطن الفهرى الذي سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذي تقدم ذكره أيضاً

(٤) « Dauphiné » مقاطعة في شمالي « بروفانس » وغربي « سافوا » وشرقي « ليون »

تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون « Valence »

(٧) « Vienne » مدينة على الرون أيضاً

وكان المسلمون للاخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد ، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم ، وقد كان وافقه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت نائرة عليه ، فصرح أخاه « شيلد براند^(١) » بجيش إلى ليون ، وأرسل يستصرخ « لويتبراند^(٢) » ملك « اللومباردين » في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البواحداً مع موروند دوق مرسيلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بيمونت^(٣) » . فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد ، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد ، وجاء لويت براند ملك اللومباردين بجيش آخر من ايطالية ، فاستولوا على آفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القديما أتيبا^(٤) وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال البيرانية المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر إلى عقبة بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً في البحر ، لنجدة هذه البلدة ، تحت قيادة رجل يقال له عامر^(٥) فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بغتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الاقل قليل خلصوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى « أربونة » . ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعرت له خدّها . وفي تلك الأيام جاءه الخبر بأن الفرizon والسكسون أشعلوا الثورة من جديد ، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولكنه قبل رحيله خرب القلاع

Childebrand (١)

Luitprana (٢)

Piemont (٣) هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمال ايطالية

(٤) لعله الهيم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التي كانت في « بيزيه (١) » و « أقد (٢) » ودمر أبواب مدينة « نيم (٣) » الشهيرة وقتها من الملهي الروماني الذي كان فيها خوفاً من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون (٤) » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالي جنوبي فرنسا كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون الى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدينة قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع في أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضي، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكارپوس (٥) » مطران « فيين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع الى أسقفيته ، نخلو الكرسي مما يقوم بأوده ، فذهب الى « فاله (٦) » حيث جعلوه رئيساً للدير « سين موريس (٧) » وكان الأبحار ورجال الدين يؤوّلون هذه المصائب بأنها عقاب صبّه الله تعالى على هام

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفاً

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولده، كانت إحدى المدن السبع التي نسبت اليها

مقاطعة سبتيمانية التي معنى اسمها السبعية

(٣) Nimes مدينة مشهورة في جنوبي فرنسا ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأً إليها سفن المسادين الواردة من الأندلس

وافريقية

(٥) Wilicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice في سويسرة . وسيأتي ذكر هذا الدير الذي أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة^(١) . ولم يخل الأبحار ورجال النين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذي تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيناروس» مطران «أو كسير^(٢)» الذي كان يحارب في جيش شارل مارتيل بنفسه . ويقاتل المسلمين في البيرانه وهو في ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيلى قد فر هارباً من وجه شارل مارتل ، وبقي متوارياً الى أن غادر شارل مارتل جنوبي فرنسا عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتل شمالاً ظهر موروند من مخبأه ، وجدد علاقاته مع المسلمين ، وقاموا بعمل واحد ، فبلغ الخبر شارل مارتل . وفي سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيلى . ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون في أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالى مقاطعة بروفانس ، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطاً على بلاده مما كانوا في غيرها . ولكن نزلت على بلاد بروفانس و «لانغدوق» مصيبة ثانية وهى غارات المسلمين البحرية التى كانت سواحل جنوبي فرنسا دائماً عرضة لها

وكان المسلمون فى أول الأمر لايجبون ركوب البحر ، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وأفريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بنحو خمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفى سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم تبرح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الاسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الاسلامية ، فى بادئ الأمر ، جمعاً مؤتسباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً فى الغنائم . ومنهم من كان يغزو

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جلستها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» الى ملك «مرسية» فى انسكتر سنة ٧٤٥ وهى مملكة كانت فى أواسط انسكتر . قاعدتها لنكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقى من باريس

في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة الى أن النساء صرن يغزون في البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص. وقيل انه لما ذهب الأسطول الاسلامي يغزو القسطنطينية ، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضراً، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم . فأجابه ابن عمر: والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ . وعزوا الى الرسول أنه قال : إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر

وكانت الغزوات الاسلامية البحرية ، صدر الاسلام ، موجهاً أكثرها الى مملكة الروم. ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ . ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لاغير ، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من افريقية الى جبل طارق (١) . وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مرافئ الأندلس . وكذلك كانت للعرب مرافئ كثيرة ممتدة من جبل طارق الى طرابلس الغرب . سنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس . وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ، (٢) ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها . وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سرديانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا (٣) وكانت جزائر سرديانيا وكورسكا وصقلية تابعة للملك القسطنطينية . ففي البدايه نان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل .

(١) روى ذلك ابن القوطية

(٢) نقل رينو هذار عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب الملوكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان

الرسول نفسه ولبثوا فيها الى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية منقوضة

وكان أول نزول العرب، في سواحل فرنسا، هو في جزيرة « ليرين ^(١) » بقرب عين الطيب ^(٢) . وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسا وإيطالية وسائر بلاد أوروبا . وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير ^(٣) » فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت . وإنما أرسل الى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير . فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئاً ذا بال، فعرضوا على الرهبان الاسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً .

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسا وجنوبها، بحيث كان يمكن العرب أن يفتنوا هذه الفرصة ويجددوا غاراتهم على جنوبي فرنسا ويبلغوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقدوا عن كل عمل من هذا القبيل . فان العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وحدهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين الى يمانيين وهم أبناء قحطان ، والى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم . وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت الى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسا .

وفي ذلك الوقت أعفى العرب الأقوام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزيرة التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر ، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئاً . إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير افريقية فتقاضى البربر الجزيرة فعصوا عليه . وكانوا أقواماً أشداء

Lerins (١)

Antibes (٢) بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

Saint Porcaire (٣)

نشأوا على صهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدوينهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدو - أي إلى إفريقية - لإدخال البربر في الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتيل، في غياب عقبة في إفريقية لإدخال البربر في الطاعة، أن يخضع شوكة العرب في جنوبي فرنسا (١). ثم اشتدت ثورة البربر في إفريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين في الأندلس قد تقاسموا الأراضي فيما بينهم، سواء في الأندلس أو في جنوبي فرنسا، فخافوا من أن هذا الفريق الذي دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي، وقصدوا أن يجلوهم عن البلاد. وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر قرطبة. وكان في أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فزحف من أربونة بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بثأر عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بثأر صديقه (٢).

ولم يكن في وسع الخلفاء في دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه في بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لاسيما إن الثورات كانت تتوالى في الولايات الشرقية فتشغلهم عن الغرب. وهكذا تغيرت الحالة في جنوبي فرنسا، وخلال الجو للمسيحيين، برغم قصر باع بين القصير وفتور همته. وكان المسلمون الذين في أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية في تلك المدن أخذت تخف شيئاً فشيئاً، فصار في نيم وفي بيزيه وفي ماغون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسطان المسلمين (٣). ومثل

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتيل أن يضم جنوبي فرنسا إلى مملكته ويخلص بروفانس ولانغدوق وسبتيانيا من أيدي المسلمين

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن ابن الفوطية. وقد جاء في أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ

هذا حصل في شمالى إسبانية ، أى في أشتورية ونابار وغيرها .

وفي سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف ^(١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى البيرانه ، لأجل تدويج تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال البيرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتداء المسيحيون في السبتيانية ينتقضون على المسلمين . وكان يتنازع هذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر ^(٢) بن أود دوق أ كيتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك وهو اللقب الذى لم ينله أبوه برغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة

وفي سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللانغدوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون وبيزيه ^(٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس ^(٤) إلا أن العرب قتلوا أنسماندوس هذا ، فى كمين عملوه له ، وصادف ذلك حصول مجاعة فى جنوبي فرنسا عطلت حركات الجيوش

وكان بنو العباس فى الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعقبوهم فى كل مكان ، ففر منهم واحد الى افريقية ومنها أجاز الى مالقة فلتقاءه عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن ^(٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدر أن يكون على يد هذا الرجل

(١) يوسف بن عبد الرحمن الفهري

(٢) Vaifre

(٣) أورد رينو على ذلك نصاً من مجموعة مؤرخى فرنسا منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره

فى إحدى الحواشى

Ansemundus (٤)

(٥) هو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل . والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان

الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا

بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لمسلمي اسبانية . وفي أيامهم تأثلت المدينة العربية في الأندلس تأثلاً لا تزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمر المسلمين في الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقي يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس تمامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقي أعقابه الى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف . وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموي في الأندلس ، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسة ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملاً برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار ، فانهزموا هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالي أربونة من المسيحيين ، وقد ضرسهم حصار أربونة بناه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بين سراً على أن ينتقضوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحراراً في بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بين . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، وذبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيين . وكانت ذلك سنة ٧٥٩ فانقضت حكومة الاسلام من أربونه ، وأبقى الملك بين جيشاً وافراً لأجل حراسة البلاد (١) .
اه ملخصاً من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلاً عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخي الافرنجة يذهبون الى أن المسلمين لم ينقضوا من جنوبي فرنسة تلك الثرة بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينييه وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب وأن

غارات العرب على فرنسا

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذي سنتكلم عنه الآن في هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذي تقدمه والذي سردنا وقائمه . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب في تغلبهم في فرنسا لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها في الاسلام ، بل كان هدف رميهم الاستيلاء على سائر أوروبا وإضافة هذه القارة التي كادت في زمان الرومانيين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربي الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية ، الشام والعراق ، فكان مركز ديارتهم ومبعث قوتهم في الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن في نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التي لانظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وبنيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذي بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثلّ عرشها في الشام وأيد رجالها بالسيف ، ففر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى في افريقية وفي سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولاأهله . ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذي يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة في تلك الجهات طول مدة بين وولده شارلمان . وقد ورد في بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينية أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنان بارال إلى أن المسلمين كانوا في نيس وان شارلمان هو الذي طردهم منها . ومن هنا اشتدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون في دوفينية من زمان شارل مرتيل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد البيسونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بمحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الارض الكبيرة ، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم ، والتي كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتفاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الغرة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسة التي هي مرمى العرب في هذه الفارات تتأيد يوماً فيوماً ويغلظ أمرها ، فانها في عهد « بين » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانيا وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع إذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مسلمو إسبانية هم المهاجمين لمسيحيي فرنسة ، بل أصبح مسيحيو فرنسة هم المهاجمين لمسلمي إسبانية (١) . وكان « بين » و « شرلمان » قد أخذوا يرسلان أهالي « كتالونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائماً يمدان أيدي التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة ، وكثيراً ما هم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطشوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكتهم ، لأن الولايات التي تشرب من نهر الايبير (٢) بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسة الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويحييون لصريحهم

ومما يدل على بعد المدى الذي تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكمت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكد كل من الفريقين النكاية

(١) قد ظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصدع الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربة ، ومما لانزاع فيه أن القوة المتحددة التي كان وراءها الأندلس وافريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها

(٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقسطة . والاسبانيول والعرب يقولون له ايبيره

بالآخر ، أكثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يرأسون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجوس » ومرافق سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصره وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد (١) ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والألطف وان كان قد وجد من عمالهم في افريقية من يشن الغارات على سواحلنا في الأحيان ، فما ذاك الا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بين » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيين . وكان « بين » يعد « البيرانه » هي التخيم الطبيعي بين فرنسا وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن « بين » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيين لأربونة دخل أمير برشلونه المسمى

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس « جيو » Jubeau في مجموعة البولنديين

سليمان^(١) في علاقات مع « بين » وتعاهد معه^(٢) . ومؤرخو الفرنسيين يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون الى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من حناقهم ، واذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيين بحق بلادهم عادوا الى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فانها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرارة . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و « البة » بلاد « البا » و « القلاع »^(٣) وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه الى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هو سليمان الاعرابي الكلابي أمير برشلونة . وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذ كان أميراً بسرقسطة . انظر إلى مايقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عباد ، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش ، فنازل أهل المدينة وقتلهم أياماً ، ثم ان الاعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيراً وانهمزم بجيش . فبعث به الاعرابي إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا - الذي ملاً شارلمان على قومه - وكيف انتهى أمره

(٢) نقل « رينو » هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكه »

(٣) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الاسلامية لبلاد ألبا والقلاع

Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً « ألبا » ولكن تلفظ الاسبانيول للقاء

هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالاسبانية Puero ومعناها المر ، وذلك لأنه من هناك كان المر من الأندلس الى الارض الكبيرة . وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونة الى أربونة على مدينة « پرينيان ^(١) » الحاضرة . والثانى طريق « بويسردا » على « سردانة ^(٢) » . والثالث الطريق الذى يودى من « بنبلونة » الى « سان جان بيبه دوپور ^(٣) » والرابع طريق طولوزة الى بايـون ^(٤) . وكانت طرق البيرانه فى القرون الوسطى أوعر مما هى الآن بلا نكير

وكما كان بين ملك فرنسة كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتأ يغرى بعضهم بالايقاع ببعض ، كان الخليفة العباسى المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضاً فى توحيد المملكة الاسلامية كما كانت لعهد بنى أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقية أسطولا فيه عساكر لقاتلة عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل ^(٥) ووجد

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الشرقية

(٢) Cerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هى غير طولوزة الإفريقية. والفرق بينهما أن

طولوزة الاسبانية تكتب بحرف O فقط وان طولوزة الإفريقية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفى سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصبي من افريقية إلى الأندلس ، ونزل بياجة الأندلس ، داعياً لأبى جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقبه بنواحي اشبيلية ، فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه . وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقيت فى أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود . وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ما هذا إلا شيطان والمحمدلله الذى جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى تقدم ذكره فى أخبار عبد الرحمن الداخل : نار عليه العلاء بن مغيث اليحصبي ، ويقال حضرمى وسود (يعنى دعا لبني العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبى جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود فى سن قنائة ، قد أدخله فى اهليجة وطبع عليه ، فأخرجه العلاء فجعله فى رمحه وقام به فى جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائى وأمية بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه واكلوه ، وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من مائة على عبد الرحمن . ولما كان بين لا يخشى عادية المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوهما واحداً أسرع الى الدخول في العلاقات مع المنصور ، وأمل منه الجذب بضبعه

وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسيلى وصعدوا الى مقر بين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متز» باللورين، ثم أمر باقامتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا الى الشرق، عن طريق مرسيلى ، ومعهم الهدايا الى الخليفة هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بين » في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم ، ولذلك الفريق أنه هو حامى النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمي من شدونة ممدأ لهم. فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدرأ مولاه في قطيع من عسكره فقطع به فنزل في الوجبة التي بين وادي إبره والنهر الأعظم. ونازله بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمي إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الامدينة قرمونة فعبوا على الخروج اليها ليلا. وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدرأ ، وقال له : ابدر الى المدينة وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعاً. وأصيب أمية بن قطن مكبلا فن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فيز رؤوس المعروفين ورأس العلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن اتدب لحمل تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى الفيوان ، فطرحها ليلا في السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر في الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أباجعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة و طليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى (١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر انه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرّة كونة (٢) فلم يبق فيها مركز أسقفى فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسا . وقد كان أيضا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسا ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إيره ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie (٣) حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الإفرنسى (٤) .

(١) جاء في نفح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذى أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبابه . ومن هذه الأسماء يعرف القارىء أن أهل الذمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهى مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهى بين طرطوشة وبرشلونة بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . قال : وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة

(٣) وستفاليا هى اليوم من مقاطعات برنوسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربى والآخريّن

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقض على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية إليه ، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حدسه هذا ، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهروا أنه لم يكن مقصد بعض أمراءهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون في الجبال فقد آلواهم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أياً كان ، فما وصل شارلمان الى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه (١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قاومته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلاً إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل في هجومه على سرقسطة فشلاً تاماً . ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه الى فرنسا (٢) . أما أمراء برشلونه وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم الى شارلمان

و بينما شارلمان يحارب في شمالي اسبانية إذ جاءه الصريح بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديانتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان الى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربي . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابي السحي . وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهي قلعة حصينة

(٢) جاء في أخبار مجموعته : ان حسين بن يحيى الأنصاري رفيق سليمان الكلبي ، الذي ثار بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل ، كان قد عدا على سليمان يوم جمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن . وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادي فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أصحابه . فسمى ذلك الموضع إلى اليوم « مخاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسا ، وبينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله الى وادي « رونسفو » Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجليليون ، وساعدتهم في ذلك المسلمون ، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس بينهم فيما يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

وبالاختصار كانت الجهات الشمالية من اسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلاداً ثغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفرنجة لكونها طالما الحقت بمملكة أكيثانيا . وكان شارلمان قد جعل اكيثانيا لابنه لويس الذي جعل كرسى ملكه طلوزة أو طولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التي كانت أطاعته قبلاً ، وحنق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب في مجيء الفرنسيس . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكأبوا يتحملون شظف العيش ويلبسون جلود السباع ولا يباليون بسكنى البرارى . ولكن المترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى في الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ، ووزع هذا عليهم أراضى في بسائط أربونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئاً إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى النصرانية كما يظهر من أسمائهم^(١) وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل «رينو» هذا الخبر عن «الدون بوكيه» ولم نعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تنصر جماعة من المسلمين في أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه عند ما اشتدت الفتنة بين الفيسية والبيمانية اغتم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبقي من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علع يقال له بلاى قد ذكرناه في أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة فلما كان في سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل الخ. ولا مانع من أن يكون في الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسا أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve
ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفى سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون
الفرنسيون بالقسوة ، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتياً وأنه أوقع بكثير من
رعيته العرب والبربر . وزعم الدون بوكيه أن النصراني واليهود قاسوا العذاب ألواناً
في أيامه ، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من العيشة . وأما نحن فنعتقد أن
هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده وبمجرد حسن تديره وكان في جدال
وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه ، لم يكن ليستغنى احياناً عن الإتيان بمثلات من
الشدة يرهب بها أعداءه . والحقيقة انه كان في نفسه حليماً عاقلاً محباً للعلوم والصنائع ،
وأنه هو أول مؤسس للمدينة العربية الزاهرة في الأندلس . ولا يظهر أنه كانت
له علاقات رأساً مع شارلمان ، وان كان القرى يذكر ذلك ويقول انه أراد أن يخطب
احدى بناته ^(١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي دخل في علاقات

(١) جاء في نفع الطيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) مايلي : وخطب عبدالرحمن قارله ملك الإفرنج
وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المسكر ثم الرجولية فال معه إلى المداراة
ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة . اه
قلت : وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن في ذلك كما قال
« رينو » عن إرهاف الحد ، فلننقل في هذا الموضوع ماجاء في النفع عن ابن حيان : ولما ألقى
الداخل الأندلس نغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم
بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قبل الروة وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون
الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية ووجد الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد ، فأقام
للملك آله وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكبر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ،
ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها ، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور
بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجع عبد الرحمن كثيراً ويعسد له بنفسه ويكثر ذكره
ويقول : لاعتجبوا لامتداد أمره مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالتأن في أمر فتى قريش الأحوذى
الغد في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسلية عن جميع ذلك يبعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى
تذف نفسه في لجج المهالك لا ابتناء مجده فاقتمح جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب
بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى

كهذه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثاني الذي كانت له علاقات مع شارل الأصغر
والذي كان عائشاً في عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه

وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني رأينا
مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبد الرحمن الثاني نقلاً عن نفع الطيب .

قال المقرئ : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال
المغيب وأثنى في أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفي سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه
عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبه والقلاع ، فحرب كثيراً من البلاد وانتسفا ،
وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف
ظافراً . وفي سنة ٢٤ بعث قريه عبيد الله بن البلنسى في العساكر ، لغزو ألبه والقلاع ،
فسار ولقى العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبي . ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار
على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبي
في العدو . ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه .
ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال
في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم . وفي سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن
العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية^(١) وكان على مقدمة المسلمين
موسى بن موسى عامل ططيلة^(٢) ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

اتقاد له عصيهم وذلكه أيهم فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته فاهراً لأعدائه جامياً لدماره
مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبية منه إن ذلك هو الفقى كل الفقى لا يكذب مادحه . انتهى
قلت : وكان المنصور يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قریش وسندكر في الجزء التالي كلاماً آخر

للمنصور عنه في هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التي يقال لها برطانية Bretagne من شمالي فرنسا إلى الغرب بل
هي مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها
« امبروطانية » وهي لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل
صور وصيدا في أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالي الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعساكر، فتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى إلى أن يقول : وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون^(١) ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثاموا فيه ثامة ورجعوا. ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة فعات في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى « البرت » إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلاً وأسرأ وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى « جيرونده »^(٢) وعات في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم « توفيلس »^(٣) بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطالب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ماضيق به عليه المأمون والمعتصم، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابني مراجل وماردة^(٤) فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال بمن كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع عبدالرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس. ويعرف الأمير عبدالرحمن بالأوسط،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية في شمالي إسبانية لامدينة ليون الإفريقية التي يكتب سميها هكذا : Lyon

(٢) Jironde يريد بمدينة جيرونده بوردو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهي مدينة بلاد جيرونده الإفريقية

(٣) هسندا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتصم العباسي وفتح من بلاده عمورية. وورد ذكره في قصيدة أبي تمام الطائي التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فانه يقول فيها :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة بمعنى من الحرب الخ
(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراجل ماتت في نفاسها به، وكانت أم المعتصم اسمها ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفلس إمبراطور الروم قصد أن يغري بني أمية أمراء الأندلس بغزو المشرق ليشغل بني العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده وأخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنعاً اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور . وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس . وزاد في جامع قرطبة رواقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبني بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم الملكة واحتجب عن العامة . قال : وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب بيدر المال حين تجنت عليه وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار اه

وجاء في النفع كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطرอบ ولغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصغر ملك فرنسا . ولم أذكر ان « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئاً من هذا ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى افرنجية ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماً من بعده وان هشاماً لأول حكمه وجد الفتن مشتتة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهاد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شئ للكلمة . وكان يريد أن يتلافى مانقص من الملكة بنارات بين وشارلمان الأخيرة ويخضد شوكة مسيحي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرّون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون أن يقاتلوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضربون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمّس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال البيرانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير في الجوامع ، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد ^(١) . فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، وانثالوا على الأمير من كل حذب ، ولكن برغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الأولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد في سبيل الله من افريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها . فان هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الاندلس ، فأصبح الغزو في الاندلس منحصرا في أهلها . ولذلك لم يجتمع في هذا النفير سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحي أستوريش ، فلم يظفروا بطائل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك ^(٢) الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفاريين ، ونجبة جنود مملكة ا كيتانيا غائبة في ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فهد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادروا باحراق أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة ^(٣) وكان لويس ملك ا كيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه الى غليوم كونت طلوزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوريبو » ^(٤) في المكان المسمى « فيلدانيا » ^(٥) بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمى المعارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) نقل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال :
وليس بأكد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى

(٢) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٣) نقل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » في مجموعة « الدون بوكيه »

Orbieux (٤)

Villedaigne (٥)

المسلمين ثبتوا كالأوتاد والفرنسيس انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا
بخسائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل
أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي
والمغنم ، وقفلوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائفة ، للمسلمين على المسيحيين ،
فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر^(١) وأصاب الأمير خمس الغنائم
فبلغ حمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب . فاذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى
قيمتها الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك
من معاملتنا الحاضرة^(٢) فبني هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه^(٣)
وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة
الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد
المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له : إن هذا
من أجل كون هذا القسم بني من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً
بني من غنائم الجهاد . واستدعى القاضي ونقرأ من كبار القوم فأيّدوا كلامه^(٤) .
وقال بعضهم : إن أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من
جليقية ومن جنوبي فرنسة ، أي من مسافة مائتي مرحلة ، حملة أسرى المسيحيين على
ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة
ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسة وعن النويري

(٢) يعني بالمعاملة التي كانت سنة ١٨٣٦ أي منذ قرن تقريباً

(٣) ورد في نصح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع
فيه . وأما الغزاة التي ذكرها « رينو » فهي التي يقول عنها في النصح ان هشام بعث وزيره عبد الملك
ابن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيرونده فأثنخن فيها ووطى أرض
برطانية وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبي الفدا التي طبعها

«رينك» في « لايبسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر في تلك الحرب غايوم كونت
طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحي ، لأنه
بعد أن قضى حياته في الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيين الذين فتحوا برشلونة ،
أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodève) ومات
بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً في مصاف القديسين . ترجمه أحد معاصريه
فقال : إنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائماً الأناشيد بذكر أعماله الجيدة
ومواقفه في جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيين ينظمون القصائد على شارلمان
ومشاهير رجاله وبتزيمون بذكر وقائع ، فيها ما هو صحيح وفيها ما هو خيالي ، كانوا
يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغايوم ذي الأنف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم
ومدينتي اورنج وآرل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على
يد ذلك البطل الذي لا يغاب وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة
إلى زمان الثورة الفرنسية في دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد أن
شارلمان جاء بنفسه إلى آرل لطرده المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية إذا أرادوا
التغنى بأحداث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم . فأما الكتابة التي في دير « مون
ماجور » فهي غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيداً لواقعة
طرده المسلمين من آرل ، والحال أن الدير قد بُني بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .
وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فثار به عمه (١)

(١) جاء في فتح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بهد منه إليه ، فاستكثر من الممالك
وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الأمور بنفسه . وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عمه اغتم العدو
الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونه فملكها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت
عساكر المسلمين إلى مادونها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عمه اغتمت الفرنج
الفرصة فقصدوا بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥

فاضطر أن يقضى أوائل أيامه في قمع الثورة . وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة اكسلاشابيل - Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة (١) . وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك ا كيتانيا عاقداً مجعاً في طلويزة ، جاءه رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسلم المسيحيين (٢)

فظهر ان الغرة كانت لأثمة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك ا كيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيين لتسلم بلدته امتنع عليهم ولبس لهم جلد الثمر . وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية ، فسرح جيشاً لقتال عمه عبد الله في طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت اشترطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبي منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً (٣) ،

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي بلاد الغال ولم نعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يجر فون الأسماء العربية تحريفاً يبعد بها عن الأصل بعداً كبيراً بحيث تتشكر على الباحث تماماً (٣) جاء في نفع الطيب : وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار ترا كونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فمزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . وبلاكثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالمخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأثنى في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل المقري يعني بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطلة الى الطاعة . ثم ان الازفونش صاحب جليقية اغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة ، ووقع في يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعزازاً بالنصر . ثم ان لويس ملك ا كيتانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة (١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة ، ليؤدي الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً ، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي . وكان أهم ما لقيه الفرنسيين في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، عند ما جاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعقل المنيع مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونة بنوع خاص بحصانة موقعها وبقربتها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكاية بالفرنسيين . وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا « زاتون (٢) » قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول في طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيين أمام بلده امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر المجن فاجمع لويس ملك ا كيتانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طلوزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولاً بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة كما قال الشاعر « ارلو لدوس نيجلوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فنبث

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت : وشقة بليدة في الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر له رحلة و ابراهيم بن عجيس بن اسباط بن أسعد بن عدى الزيادةي الوشقي كان حافظاً للغة واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولايدري ما أصل هذا الاسم

الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملائى بالفنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيين لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدروا على دخولها : وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة كان يربط في المر الذي تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعلى جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولاً بوضع السلام ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولاً اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولاً اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج في إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس الى أبيه شارلمان جانباً من الفنائم ، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول منسرجة بأنغر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي اسبانية احدها كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية عشقونية ومن جملتها ناباره وأراغون

وفي تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسي ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام ينسبون سقوط برشلونة الى تأخير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله هما الحكم وشغلته عن انقاذ تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المقرئ في النفع وكلام أبي الفداء

الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عند الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيين من عهد انيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يتسبح برؤيته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد إلى بغداد استقبلهم الخليفة برأ وترحيباً ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند ما يردون إليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد إلى شارلمان ومعه هدايا أخر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخر . وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد في قدمته من الشرق ، في مدينة بيزة ، وولدت الهدايا بابتهاج عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ما قاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك (١) وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه إلى قرطجونة ، في افريقية ، ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس فيريانس المدفون في قرطجونة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم إلى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان (٢) وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتنهذب . وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والافرنج في بلاد اراغون وكتلوننية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية « اجينارد » Eginard

(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلاً عن الدون بوكيه وقال : إن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وإنما ذكروا تبادل رسائل بين بين التفسير والمنصور العباسي وبين الملك لويس الحليم Le Debonnaire وبين المأمون . وأما المنبو بوكفيل « Pouqueville » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كلها غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجلا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة . ففي سنة ٨٠٩ مسيحية مات الكنت اوربول « Aureole » قائد الجيوش الافرنية في اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعماً انه عند ما أتى شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت العساكر الافرنية أبي إزاهم فيها ، فبقيت في يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيس . وقد روى بعض مؤرخي العرب أن عمروس هذا كان أميراً في وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في اسبانية لذلك العهد ، لاسيا في الأصقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولدون . وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بذيما ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فتاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهي . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لقضيتهم ، وأوهمهم انه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتفاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون المعقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لاتنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه ، فقتل انه قطع رؤوس أربعائة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزي الهولندي في « تاريخ الاسلام في إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهيمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهيمه مطامعه الدنيوية ، فكشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لاتنتهي من ثورة الا الى ثورة ، وكانت تأتي الخضوع

لوال عربي ، وقد أعجب الحكم أمرها ، فدبر عمروس هذه المكيدة على أهالي طليطلة بالاتفاق مع الحكم ، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلاً لهم : إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً لان عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للإسلام . وذهب عمروس فخدع أهالي طليطلة وتودد اليهم وزعم انه كاشفهم سرّاً بما في نفسه من الحميّة على جنسه ، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عند ماتلوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : إن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون الجند في بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا في طرف من المدينة حصناً نتخذة ثكنة للعساكر لانحسنت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالي بكلام عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس المكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بحجة أن العدو تحرك في الثغر فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن - وكان في الرابعة عشرة من عمره - فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيمود أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبدالرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه ، واستقبلهم الأمير بالحفاوة والاكرام ، وهم دعوه أن يطيل الإقامة عندهم ، وتظاهر الأمير باديء ذي بدء بأنه مضطر لسرعة الأوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالترث عندهم ، وأمّسوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون اليهم الجديد اسبانيولياً من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر لإعداد وليمة لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريثة المأكلة . وفي اليوم التالي جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركائبهم وربطوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان في ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين ، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها في الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشيء مما جرى داخل الحصن وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعويين . فسأل الأهالي هل رأيتم أحداً من المدعويين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل . وقال ابن عذارى : ان عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة . وقال النويرى وابن القوطية : انهم أكثر من خمسة آلاف ، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبي غرام أهل طليطلة بالانتفاض . وعمروس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المكاييد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطداً أطناها بتعبه وجهاده ، ففي سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشثورية وأراد التجاوز على المسامين . ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملكته ، فجمعت أمداد شارلمان تثوب الى الاسبانيول تحت قيادة ولده لويس ملك اكيثانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة ، وجاء فحاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمروس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه

ولما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة في طليطلة بما أخرج الأهالي من عسف يوسف بن عمروس الذى كان قبض عليه الأهالي لسوء ملكته فيهم ، فاستدعى السلطان والده عمروس ، وعهد اليه نظراً لدربته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على تطيلة

ثم أغار الحكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، نفشى الاذفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمروس فأوقعه الاذفونش في كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره
احنة على بهلول عامله الذي انحاز الى الفرنسيين ومشى بين يديهم ، ولما عرف انه في
جوار طركونة عمده اليه من فوره ، ولم يزل في اثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن
هزمه ، واحتز رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك
خوفاً من الفشل في حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ما عرف التاريخ
شدة وصبراً وان مسلمي لبرشلونة صبروا في هذا الحصار الى الحد الذي تتحير فيه العقول .
ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين في الأطوار التي دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم
قالوا ، كما في تاريخ متس وتاريخ ريجينون وغيرهما ، انه في سنة ٧٩٧ قدم أمير
برشلونة العربي على شارلمان ، وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً
ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو » وأحياناً
« زاد » Zaddo, Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفي تاريخ الملك لويس الحليم
ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً في سربونة ، وأنه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن
عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل
في أثناءها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هي أن
سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعده
بالدخول في طاعته ، وفي سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلا في طاعة شارلمان ولكن
شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فسرح اليه
جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء
أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها .
فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيين على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة
وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونية منذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها في البداية
أمرء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانيولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم الى ولية فى القصر وقطع رؤوسهم غدرآ . ولكن رواية كوندى تختلف عن رواية دوزى بكون دوزى يوهم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك الرأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبقى بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحدائة سنه ، وراجعه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ ما يئته لأهل طليطلة ، قائلاً للأمير : ان طليطلة قد ألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لا بد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك ا كيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لانجاد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسيس عنها . ثم يقول : ان عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونية ، وانه وصل بجيشه الى أربونة وعاد بغنائم وافرة . ثم ان الفرنسيس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة (١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب .

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسيس يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونية عدة مرات من بعد هذا التاريخ فىرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو الى ما بعد ذلك . وأما العرب الذين شوهدوا في أكسلاشايل فرجما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتقضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذي تلقى جزاء خيانتته من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية

قال رينو : وفي تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنبسط في البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بانشاء الأساطيل في مرافئ الأندلس وافريقية . وقد كان لذلك تأثير عظيم في اجتياح المسلمين لجنوبى فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بنى العباس وأرسل هؤلاء جيشاً في البحر ، أجاز الى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية في وجه قوتهم البحرية

ففي سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة (١) في مراسى طرّ كونة وطرطوشة وقرطجنة واشبيلية والمرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار - أى ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سرديانية وكورسيكا - عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث ان أهالى هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد في مجموعة الدون بوكه ان هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين في بعض الوقائع وأخذوا منهم بضعة رايات ، فأرسلوا بها اليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر ، فكانوا يغادونها القتال ويراوحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

(١) سعى العرب المعامل التي كانت تبني فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصناعة ومشى كتابهم على هذا الاصطلاح ، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصناعة في صور أو أسس الأمير فلان دار الصناعة في تونس أو كانت صناعة الأندلس بالمرية وما أشبه ذلك . وأخذ الإفرنج جملة « دار صناعة » فلفظوها « دارسنا » بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كمالايجنى ، ثم قلبوها إلى « آرسنا » وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم في النسبة والمقامات الظرفية فصارت « آرسنال » ثم جاء الترك غرفوا « دار صناعة » أو « دار صناعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التي في خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين
وسنة ٨٠٦ أكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا^(١) وكان بين بن شارلمان ملكاً
على ايطالية ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى
انسحبوا الى الوراء ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول
فرجموا اليه وقتلوه وهزموا أسطولهم وأسروا ستين راهباً وباعوهم في الأندلس . وبلغ
ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفضيلة أداها عنهم^(٢)

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسردانية فاجتمع أهلها ودحروهم
فنزلوا بكورسيكا (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فحسروا ثلاثة
عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين في السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا في
سردانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكا
وعاثوا فيها . وجاء في تاريخ كورسيكا لجاكوبى ان المسلمين خيّموا في الجهة الشرقية
من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيين من طردهم الا
يشق الأنفس ، ثم في سنة ٨١٣ رجعوا الى كورسيكا وأسروا وغنموا . وبينما هم
راجمون أكن لهم كونت امبورياس Ampurias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية
غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فانقم المسلمون عن
ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

(١) أو قورسقة

(٢) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة مؤلفه فريديشى دونافار أنه في سنة ٩٣٤
جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية لحصرت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنويين تمسكوا من
دفعها عنهم ، فرجمت أدرابها وأصابها ضرر من زوامة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء
أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغاب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا مغانم
كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين وقتلوا . وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل
بجنوة سار في أثر الأسطول الاسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنويون من
ذلك الحين يمحسون بلدتهم

بقرب رومة (١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغلبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامي سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبى من ذلك العهد ، وصارت مراسي تونس وسوسة بثورة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الاغلبة عيث القرصان في سواحله ، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحراراً أغنياء .

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وايطالية من جهة ، ومصر والشام واسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم الى قرصان المسلمين قرصان النورمانديين وأخذوا جميعاً يعيثون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان .
وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتمعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطمين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ١٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقموا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي فقتلوا جانباً واستسلم لهم الباقي وتنصروا وعمرروا تلك القرية . ويقال إن سجنهم لا تزال تدل على أصلهم العربي وأن ما كلفهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عربيتهم . وحق هذا اليوم ترائى أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحه ماسمته . وقيل لي انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عربية في « لوشيرة » بقرب نابلى . ولا يخفى أن الامبراطور فريديريك الثاني امبراطور ألمانيا وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحي كان عنده جيش من العرب م عمدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . ففي سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء (١) في الأندلس قاصداً أكسلاشابل وعقد معاهدة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسا بجيشه . وفي تلك الواقعة قتل القديس آفانتين . « Saint Aventin » من أهالي بانير دولوشون Bagneres - De - Luchon في مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم ، وسار على أثره في السياسة ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر ، وذلك ان أهالي ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم طبقاً عن طبق وأجازهم البحر الى اسكندرية وهناك خاف عاديتهم والى الاسكندرية فآدى اليهم مبلغاً من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريت (٢)

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسا وعن تاريخ كوندى وحتى الآن لم أظفر بهذا

الخبر فى كتب العرب

(٢) جاء فى نصح الطبيب فى ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه فى صدر ولايته كان قد انهك فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى اللثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، ثاروا به وخاموه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان محلهم متصلاً بقصره ، فقالتهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض السدوة وبلاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبدالله بن طلحة صاحب مصر للأمون بن الرشيد وغنيمهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش فلم يزلوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى

وقال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاء ابنه وكبار قواده أن لا يفاسر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتسلأت الشوارع بمجث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصيبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بذلك

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ يياشر الاشغال في حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيان Compiagne حيث كان

حارة الرض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . ومازال السيف عاملاً في الثوار إلى اليوم الثالث فعفا عن بقى منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب من هؤلاء الساكنين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى برالعدوة حيث تقبلمهم إدريس بن إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً إلى الاسكندرية ودخلوا البلدة واستولوا عليها ، فاجأ عامل الخليفة المأمون على مصر إلى مصالحتهم وأدى لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمروا إحدى جزر بحر يونان ، فاخترأوا اقريطش ، وكان العمور منها قليلاً فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجملوه أميراً عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يفزون في البحر ويفنمون ثم كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروى السيوشيني Chenier ان الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن وكان اسمه « كندش » Gandax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه وقد ذكر كوندى رواة هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرها . وأما دوزى فقال ان عدد الذين نزلوا من الرضيين بالاسكندرية كان ١٥ ألفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور مصر يومئذ مختلفة فلم يقدر العامل على منهم من النزول . وانفقوا أولاً مع قبيلة من عرب الضواحي إلى أن تمكنوا ، فالتقوا مع هؤلاء العرب وهزمهم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة المأمون جيشاً قاتلمهم فقاتلوه وثبتوا إلى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم فخرجوا إلى جزيرة اقريطش التي كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم أبو حفص صر البلوطى — من فحس البلوط — دولة استمرت في اقريطش (أو كريت) إلى سنة ٩٦١ اذ عاد الروم فافتتحوها الجزيرة اه

وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين اختلوا جزيرة اقريطش سنة ٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه في سنة ٨٢٥ استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وقعة الرض في قرطبة واجلاء الحكم الأموى أهل الرض وبعثهم إلى الاسكندرية ، فجاءوا إلى جزيرة اقريطش فافتتحوها كلها ماعدا أرض سماكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس « شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاماً لاقريطش

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيفوفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان
مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت الا انها لم تطل . وفي سنة ٨٢٠

أشهر واستصفي الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات في
القسطنطينية ، ودخل في خدمة ملك الروم ابنه أنعاس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون
عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت
للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥ هـ

وقال ياقوت في معجم البلدان : اقريطش بفتح الهمزة وتكسر والقاف ساكنة والراء مكسورة
وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا
وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر
(يعني البلاذري) : غزا جنادة ابن أبي أمية الأزدي جزيرة ارواد في سنة ٤٤ هـ في أيام معاوية ثم غزا
اقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة
الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف
بالاقريطشي فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم
أحداً وخرب حصونهم وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذري في « فتوح
البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذري : فتحت اقريطش في أول أيام المأمون ، وقيل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر
ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحوص البلوط من الأندلس
وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ،
وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فسار اليها حتى افتتحها . وكانت من
أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها تقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع ،
وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة
آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠
فقتل ونهب وسي ، وأخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي
وأمواله وبني عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية ، وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسي
أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوفا في المينا الذي دخلت مراكبهم فيه ، لئلا
يدخل فيه بدم عدو ، وهي الى الآن بيد الإفرنج . ونسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى
أبو بكر الاقريطشي حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكى روى عنه عبدالله بن محمد النسائي
المؤدب قاله ابو القاسم انتهى

سار اسطول إسلامي من تركونة وغزا جزيرة سردانية بجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها ، فتغلب الأسطول الإسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

وقال ابن عميرة في بنية الملتس في تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبو حفص ، المعروف بالغليظ الباطلي من أعمال فحمس الباطي المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الربيعين وانه الذي غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتحين لها مع أهل الأندلس . هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة اقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالعراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا في اسمه أولاً فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى وجاء في صبح الأعشى أن عبد الله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرس للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والنكد ما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعدا والقيلة والسفاد فجمعوا عبدة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المسفدين ولا يضيع أجر المحسنين

وقال في محل آخر : وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرس واقريطش ، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمسير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يفزون بلاد النصرانية وينكون فيها النكاية الظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصعدت النصارى صندها ووكدت وكدها إلى أن ماكتها جميعاً . وكانت قبرس على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كالت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها قسبان ، فكانت نصلاً للمسلمين ونصلاً للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت . فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والسائلة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر المسعودي في مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله اتي احمد بن الحبيب الى

اقريطش سنة ٢٤٨

وفي تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كعادته ، وهو الذي كان داخل

ومما يتعلق بجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلاً مسلماً في مدينة اطرابونش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوهم الى فراق الاسلام قال : فيها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة الفسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نموذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين القائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكك الاسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحداث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرته نيماً على الثلاثين ألف دينار مؤمينة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملكه الموروثه عن سلفه حتى بق بدون مال ، فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنهوض لهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ الملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة زغبة منه في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فآظروا لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لو اباع انا وأهل بيتي لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى الحصون في بلاد المسلمين . فتأمل حالاً يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتمنى مثل هذا التبني مع كونه مثقلاً عيالا بنين وبنات ، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكياً مبكياً واستمال نفوسنا لشرف منزعه وخصوصيه شيمائه وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعهم بها ويجازيه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجها
اهتبل الفرنسيين الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونية وآرغون فعاتوا ودمروا وأحرقوا .
وفي سنة ٨٢٠ اتهم بيره Bera أمير برشلونة من قبل فرنسة بمالأة المسلمين
سراً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة
القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح
فالمغلوب منهما يعد مذنباً . وفي ذلك اليوم كان المغلوب « بيره » فتقرر حينئذ أنه كان
خائناً للفرنسيين . وفي ذلك الوقت ثار نصارى ناباراه على الفرنسيين من شدة عسفهم
وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وساموهم مدينة بنبلونة ، فأرسل الامبراطور الكنت
أزناز Asnar والكننت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فانقض عليهما نصارى الجبال
وثقفوهما . فأما أزناز فمفوا عنه لأنه كان من اصل عشقونى أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم ما بنى به أهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على
زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المذنب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ،
فيتنصر ويتمسك ، فلا يجد الأب للابن سييلاً ولا الأم لل بنت سييلاً فتخيل حال من منى بمثل هذا في
أهله وولده يقطع صرمة متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق
على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة اقریطش في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية بالاستبدراج
التمى بعد التمسك حالاً بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .
قال : ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور ، في نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر
لما بقى في صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رافة وحناناً ان
أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راجعاً في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة
السن قد راهقت الادراك فان رضيتها تزوجها وان لم يرضها زوجها من يرضاه من أهل بلده وذلك
طبعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى
الى السباح بمثل هذه الوديمة المعلقة واسلامها الى يد من يفر بها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق
اليها ، كما انا استغربنا حال العسية ورضاهما بفرق أهلها رغبة في الاسلام واستمسكاً بعروته
الوثق ، وكان استشارها الاب في ما هم به فقالت : ان أمسكتنى فانت مسؤول عنى انتهى باختصار
وقد اوردنا هذه الأمائيل ليعلم القارى كيفية تلاشى الاسلام من اقریطش وصقلية وغيرها من
جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم الساسى ،
والدين لا يمكن حفظه بلا دنيا كما قلنا ذلك مراراً

فأطت بهم رحم القرابة نحوه . وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير في قرطبة . روي ذلك الدون بوكه

وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة ، على عبد الرحمن ، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتي نصه :

«باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية الى الاساقفة والشعب في ماردة . قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبماً في ذلك طريقة ابيه أبولاز الذي كان يبتزكم أموالكم والذي كان جعل اصداقاه أعداء وجعل الطائع عاصياً ، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتهم وان يثقلوا كواهلكم بالضرائب وان يمسوا كرامتكم ويهينوكم . وقد علمنا انكم ايتم تحمل الاهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم . وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة ، فرأينا ان نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ولتحريركم على الثبات في خطكم هذه . ولما كان هذا الملك البربري عدواً لنا ، كما هو عدولكم ، فاننا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله . ومرادنا في هذا الصيف بمون الله تعالى أن ترسل جيشاً يجتاز البيرانه ويكون حاضراً للعمل باشارتكم ، فان كان عبد الرحمن سيزحف اليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له ، وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تخلمون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتهم الأولى ، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا ، وانتم تختارون القانون الذي تريدون ان تسيروا عليه ، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أثواب العافية » انتهى

وفي ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة في اكسلاشابيل ، حضرها ابنه بين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية ، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو الأندلس للاخذ بالثار . وكان في اكسلاشابيل قائد قوطي اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه الى الامبراطور ، فما شعروا به إلا وقد انسل من هناك خفية ، وجاء وأثار

الأهالي في كتلونية وآراغون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التي كانت تحت احتلال الفرنسيين ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولما أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال في التعبئة والنجدة فسرح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله أحد ابناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغذوا السير ، بينما الجيش الافرنسي يسير بطيئاً ، فوصلوا الى برشلونة وجيرونة واجتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملاوا البلاد عيثاً وتدميراً كما جاء في مجموعة بوكه . وكان أهالي ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسيين لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرحهم أمر كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا في طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فاخرين . وفي تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمنديين في سواحل فرنسة والمانية وانكثرة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجعل في سواحل فرنسة وايطالية غدوها ورواحها ، فعيل صبر بونيفاس أمير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاجتاحت ساحل قرطاجنة للأخذ بالثار . وقد ذكروا انه كان المسلمين لذلك العهد بارجة متناهية في الكبر يظنها الرأي من بعيد سورا عالياً سائراً في البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye في بريطانيا عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئاً غير هذا

ولا يخفى ان هذه الوقائع كانت تتراكم كلها في أيام الامبراطور لويس الحليم الذي كان هو بنفسه فائل الرأي ضعيف العزيمة سيء الادارة فاقد الارادة ، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بداله أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فثار أولاده عليه وقتلوه وخلعوه ، ورجع الى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلات أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان المجاعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السهاوية انقضت على شعوب سلطنتنا مما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام وواجتماع الاساقفة في أربع حواضر ، منها مدينة طلوزة ، وذلك لأجل المذاكرة في التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

أما العلاقات التجارية، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام، فلم تنقطع في وقت من الأوقات. وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية، وقد تقدم وفد من قبل الخليفة المأمون إلى فرنسا مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي. وجاءوا إلى الامبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افوايه عاطرة.

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في جبال البيرانه، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسا، فاجتاح الأمير عبيد الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت تحتلها جيوش الفرنسيين، كما ان هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا لملوك قرطبة، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه اسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويايسة. وهاجم المسلمون مرسيلية وانزلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى. والمظنون انه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة إلى القديسة اوزيبيا Cusébia رئيسة دير الراهبات في مرسيلية والأربعين راهبة اللائي كنَّ في ذلك الدير، وذلك انهنَّ خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المعرات فشوهن خلقة انفسهن بجمع انوفهن حتى يكن بآمن من تجاوز غزاة العرب

ومات الامبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوق الخلف بين اولاده، واغتم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا للدون بوكه، وعاثوا في مدينة آزل ونواحيها. وفي الوقت نفسه اغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة، واكتسح تلك البلاد (١)

وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسا إلى الدرجة القصوى بسبب

(١) أشار رينو إلى هذا الخبر قلاعن المقرئ. وقد راجعنا كلام المقرئ في النسخ، فأيناه يقول: انه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلاها وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك : الامبراطور لوثير Lothaire والملك شارل الأصغر والملك الشاب بين ابن بين الذي كان ملكاً على ا كيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آرل وبروفنس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسا لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة في بلاد بينيفنتى بقرب نابولي ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها (١) .

(١) جاء في فتوح البلدان للبلاذري تحت عنوان « فتح جزائر في البحر » مايلي :
قالوا: غزا معاوية بن حديج السكندی أيام معاوية بن أبي سفيان سقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقي منها نيفاً وعشرين مدينة وهي في أيدي المسلمين (أى في القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد ابن الأغلب منها في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قصريانة وحصن غليانة . وقال الواقدي: سبى عبدالله بن قيس بن مخلد الدرقي سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليشن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزى برأ وبحرا فبعث جنادة ابن أبي امية الازدي الى رودس . وجماعة احد من روى عنه الحديث ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات في سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢

قالوا: ورودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة . قال البلاذري : وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن وبالقل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقياً بها يقرئ الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أبي امية في سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تبعا القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هي قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري في تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى في

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومي كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة اقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها ، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشى وافتتح منها حصنا واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى . وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذري : وبالمغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر قليلاً وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها جيلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربري ويقال انه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقله الامام على ناحيته ويوليه اياها ليخرج من حد المتغلبين وبنى مسجداً جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه فقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقله على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، فعقله وأنفذه . انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض ايطالية التي تقابل سقلية . ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الادرياتيک والطيان يقولون لها بارى Bari . وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف . وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمداني على مدينة مسيني وأكمن لهم في بعض الوقائع ، فوقعوا في السكين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وساموا المدينة إلى المسلمين . وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض انكيودة وسكنوها وسنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصر يانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقياً بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦ وكانت امارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصر يانة بعد ذلك ، وقال

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطوا سدود نهرها، فنفر الأهالي وقتلواهم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قصر يانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذي تولى امارة سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هذا كان غزا نواحي قصر يانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وآتى قطنية وسرقوسة ونويطس وراغوس فغنم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً حجة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهمز الروم وأخدمتهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قصر يانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندي ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقتلهم فهزمهم وغنم منهم مائة شلندي .

قال : وفي سنة ٢٤٦ نكث كثير من قلاع سقلية وهي سطر وابلية وابلاتونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبي نور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهمز الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بلاطونو فحصرهما فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم ، فتلاقوا بمجملودي ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهمزت الروم وعادوا إلى سرقوسة . وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة ، ثم إلى غيران قرقة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبشه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيافاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت : ان مدينة طارنت التي مر ذكرها هي في الأرض الكبيرة في مقاطعة أوثرانتة وان أرض قلورية التي يشير إليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرة Calabria وقد جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت قال : قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحها وسكون ادواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهي جزيرة في شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلورى روى عن أبي اسحاق الحضرمي وغيره وحدث عنه أبو داود في سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سلورى . قال ابن حوقل : وهي جزيرة داخلية في البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالة وبلادها التي على الساحل قسانة وستانة وقرولية وسبرسة واسلو حراحة وبطرقوقة وبوة . ثم بعد ذلك على الساحل جون البناديين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة وألسنة مختلفة بين افرنجيين وألمانيين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبونس واغلة في البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

(قلت يريد بيلبونس Pélouponése وهي شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لكلازرة
تلفرة أيضاً)

قال المسعودى فى مروج الذهب عند ذكرامة النويرد ويريد بهم اللومبرديين : ان المسلمين ممن
جاورهم كانوا غلبوم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو
ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النويرد انا بوا ورجعوا
على من كان فى تلك المدن من المسلمين فأخرجهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن فى
وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى أيدي النويرد انتهى

ومن هنا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصروا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض
الكبيرة ولبثوا فيها زمناً طويلاً إلى أيام فريديريك الثانى امبراطور المانية وملك صقلية الذى عاش فى
أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى
وقال الاستاذ الشيخ محمد الخانجى البوسنوى من مدرسى المعهد العلمى الخسروى فى مدينة سراى
بوسنة فى مقدمة كتابه « الجوهر الأسنى فى تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتمامها سنة
٢١٣ على يد قاضى القيروان عالم زمانه أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلاً صالحاً
فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليه . فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا
مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان فى مدينة واحدة من مدنها وهى « بلم » نيف وثلاثمائة
مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت فى بعض الشوارع من بلم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد .
ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٤٦٤ وبعد زوال ملكهم منها بقى فيها الاسلام مدة مديدة .
وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية
الى أرض قلورية من بلاد ايتاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريبو وباره وطارنت وكانوا
قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الفنائم الحسن بن على
ابن الحسين الكلبي مسجداً كبيراً فى وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التى ذكرناها خلت
بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداولها بين
الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من
ملك الاسلام ، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : بخصب هذه الجزيرة أكثر
من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق
على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعيدة الصلبان يمشون فى مناكبها
ويرتعون فى أكنافها والمساموت معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة فى استعمالهم
واصنطاعهم ضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا
يجدونها والله عزوجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبي الجميلة مألهم . قال : وليس فى مسينى إلا نفر يسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح^(١)

ولم تكن الأندلس بأسعد حالا في تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلحها . والآفات تنيخ عليها بكلكها فانضم الى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النور مننديين الذين

ذوى المهن وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلرمة وفيها سكن الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسلمين بضاعها وجميع قرانا وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها .

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتیان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصاريات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة زعر لها هذا الشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليدكر كل أحد منكم معبوده .

وأما فتياهان الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقرباً الى الله ويفتك الأسمى ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد تقدمه رغبة منه إلينا في ذلك فاحتفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهد المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرنا وهو يندوب شوقاً وتحرقاً واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كآمنون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً فقايننا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج والاعتباط بما تتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتخذها عدة للإيمان وذخيرة للاكفان فتعطرت قلوبنا له إشفاقاً ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك في مجموعة البولنديين ، وفي تاريخ مدينة نيس لالسيو لويس دورنت ، وفي مخطوط

لؤلؤ اسمها أغيو فريديو محفوظ في مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون في أشبونة واشبيلية ويفسدون في أرضهما .

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء في مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك بين شاباً وكان في حرب مع عمه شارل الأصغر ، فطلب بين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلويزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقديس ، كما سبق الكلام عليه ، فنال غليوم ما أراه وأصبحه بعساكر تمكن بها بين من اخراج عمال شارل الأصغر من برشلونة ومن مدت أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل ، واضطروا لما كسة الريح أن يتأخروا في الساحل ، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبحوهم . ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يتخن في أرض الفرنسيس ويقتل ويسبي الى ان اضطر الملك شارل الأصغر أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكه

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحي الأندلس ، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها الى فرنسة . وتحرير الخبر أن الشرع الاسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبي الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس ، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ما تلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات . وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس في احدى المرات تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الاسلام

(صلى الله عليه وسلم) فامتنع أولاً عن الجواب فألحوا عليه في تبين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول. وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد في أحد الشوارع جاء احد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلاً لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبي . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيداه امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك في شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم الى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالى (١) .

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد وثار من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد فى الأندلس وفى نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثير من كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين فى القصر الملكى لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيماً من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضى عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحفظوها ذخائر كان الحكام يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها فى النهر وقيل انهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بعكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان تهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً ، وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جعلتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدماً فى القصر ، واثنان من الخصيان فى القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢)

(١) ان الكنيسة جعلت بهارفكتس هذا قديساً وله عيد كل سنة فى ١٨ ابريل .
(٢) سنذكر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع فى الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئاً ما يتعلق بملك فرنسة فى علاقته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجماً قرزوا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبي الاسلام عمداً ، جبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل في هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم في البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم في قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثاني على المسيحيين ، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفي أول أمره شدد أيضاً في معاملة المسيحيين حتى فكر في اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين في بعض الوقائع إلا أنه انكسر في آخر الأمر وتغلب عليه ملك اشتورية فعزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وانحاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بقرسية ملك ناباره ، وثار في أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتي سرديانية وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الجبل في بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يتركون ديارهم ويضربون في الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالي من كان ينضم الى الغزاة طمعاً في السلب .

وبينما الحال هكذا في فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها ، اذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون - كان مسيحياً فأظهر الاسلام - واعضو صبح حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فتناز على الأمير محمد وجاذبه الجبل وصارت الأندلس في أمر مريع ، واضطر الأمير الى مسالة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لامر ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيين ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ابل بحدائج مزينة .

وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشحنة ومهاداة الأعداء وفي سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فنزلوا في بروفانس في محل يقال له كامرغ

Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكزهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بفدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه الفدية ، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشتراطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيماً تهنئة المطران بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مأتماً .

ومات شارل الأصلع سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا في رومة تحت الخطر . وبرغم توالي غزوات المسلمين والنرمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لايزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافواي وبييمونت وسويسرة

الى دور اجلاهم عن فرنسا

قال رينو : ان الدور الأخير الذي سنتكلم عنه يشابه الدور الذي تقدمه في شدة المهاجمات وفي آثار السلب والعيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو في كون الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنسا خاصة ، على حين أن الحوادث التي نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفيني ، إلى حدود ألمانيا ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُتذربأن تستمر

وقد بدأ هذا الدور في سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفيني رجل يقال له بوزون Boson وقد سمي نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطوري ثقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان السكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب في تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم في بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand في مجموعة موراتوري وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalesه وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم في خليج غريمو Grimad الذي يقال له أيضاً خليج ساترويز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يصرم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجة أشبه ببلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرؤ أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على بقسم كبير من بروفسن السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون في الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى
جبال الألب ، فهموا حالا ملاءمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فالبحر
كان لهم باباً لتلقى الامدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان ، والبر كان لهم
منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح
لهم معقلاً ينجون إليه عند الاضطرار .

فلم يظأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون
من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل في مكانهم . فما مضت عدة سنوات حتى
امتلاّت تلك الأرض بالحصون والمعازل . وكان أهم تلك الحصون السمي فركسيناتوم (١)

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيين
يضعون فركسيناتوم في خليج سانترويز Saint-Tropez وهو مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا
وبقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع ، فالمؤرخ بونينو
Bonino يضع فركسيناتوم في بروفسن بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونمبريزيو Monbrizio
يضع فركسيناتوم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان
العرب نزلوا هناك وفي فريجيوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة
(التي يقول لها العرب نيقة والفرنسيين يسمونها نيس) إلى مدينة سانريجو التي قرأت في دليلها منذ بضع
سنوات ان العرب احتلوها . ومن هناك امتدوا إلى مدينة البنفة Albenga .
هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفني ديمورتانة
Jovanni Di Mortana ومنها تقدموا إلى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوفاليز Novalesa
ودير سامموريس في فاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل وهم : بينغوني Pingone
ودي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيغبرتو Sigeberto
يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فساتهم زوبعة إلى
سواحل بروفسن فنزلوا إلى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات

Fraxinetum الذي يشتق من اسم شجر الدردار الكثير في تلك الجهات . والمظنون أن فر كسيناتوم كانت في القرية الحاضرة التي يقال لها غارد فرينه Garde-Frainet الواقعة

.....
الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا في جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم في قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون في السفواى ودالفيينيتيو وفاليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكام الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدهم بالمغانم لبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركز طوسكانة . اضلعت على ذلك في خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب في فر كسينيت عدا مؤرخى العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالأفريقية والألمانية والايطالية ولكنه لا يوجد تقريباً شيء بالعربية وإنما جاء في المسالك والممالك لأبى القاسم بن حوقل الذي كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل القلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقه إليه قوم من المسلمين فعمره ، وصاروا في وجوه الأفرنجية لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا في كلامه على بحر الروم . وذكر في محل آخر جزيرة ميورقة وقال .
وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل القلال يضاف إلى ذلك العمل .
وورد ذكر جبل القلال في معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انكبدة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذة جبل القلال ، وتمر على محاذة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : يعنى بها بلاد إيطاليا اليوم التي تبتدىء من محاذة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفي صبح الأعشى يقول : قلقرية تقلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بأبدال الفاء واوا قلت : وكنت أفكر أن جبل القلال هذا بالأوصاف التي وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف في سواحل فرنسة على حدود ايطالية ولكنى لم أكن أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقفت على كلام مستشرقى الافرنج في هذا الموضوع وكنت تحدثت في هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجدافهريين بفاس ومن جالية الأندلس ، وتقدمت إليه في أن يبحث لى في المسكبة الوطنية في باريز لعلة يهتدى إلى نص أو نسوس تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريد كتاب العرب بقولهم جبل القلال فأجابني حفظه الله بالكتاب الآتى نصه . بتاريخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الخزنة العربية الصقلية تأليف أماري Amari وهي كما لا يخفى مجموعة لصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مئة كتاب عربى فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد في جبل القلال فأخذت ترجمة الخزنة الصقلية إلى الايطالية وهو

في ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال ، وإلى الآن يجد الناس في أعلى

مفيدة جدا بالتعليق التي جعلها عليها آمارى ويوجد فيها طبعتان كلتاهما في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فان آمارى اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هلالين ترجمة للفظة قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفريقية هكذا Cimes وجعل على هذا تعليقا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذى سأقله لك بالحرف، وأحال عليه: نشر المستشرق جوين بول كتاب مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول وعلق جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلاً انه كتب إلى رينو الشهير في هذا الياب فأجابته بما يلي سماحه بنشره . وقد نقل لى ولدنا السيد محمد الفاسى كتابة رينو بنصها الافرنسى فأثرت ترجمتها بالعربى وهى هذه :

« في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سفواى وييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض فرنسة في خليج غريمىو الذى يقال له ساتروينز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل معقلا هائلا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Gadre Frainet والغابة التى تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كلما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهى في المناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءوهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم الفوضى التى كانت ضاربة أطناها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا في السفواى وشمالى ايطالية وسويسرة . وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين في الاندلس وأفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا في أثناء اسفارهما بخبر فركسيناتوم من سواحل بروفنس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى في قلب اوربة وصل الى أقاصى بلاد العجم

فالاصطخرى في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التى

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدراناً متهدمة ، وبنياناً منحوتاً في الصخر وبثراً
منحوتة في الصخر أيضاً

يحيط بها البحر وفي الاطلس الذي تحت نمرة ١١ مذکور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر
الى الغرب من صيقلية يقابله المهديّة وتونس من جهة وطرطوشة من الاخرى وكذلك الحال في
الخارطة التي تحت نمرة ٥ ولا فرق بينهما سوى ان الجبل في الخارطة الثانية موضوع على مسافة
أبعد الى الغرب على علو مائة والجزائر ومن المعلوم أن الخرائط الملحقه بكتاب الاصطخرى هي
ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطلس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى
الاصطخرى يقول عن جبل القلال ما يطابق موقع فرسيناتوم واليك كلامه : وأما جبل القلال فإنه
كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض فوقه اليه قوم من الساميين فعمروه وثاروا في وجوه الافرنجية
لا يقهر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية :
جبل القلال كوهى بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قومى از مسلمانان انجا مقام
كرفتند وآبادان كردنك وقر فرنك است وفرنك براي شان دست نايندودرازى اين كوه دوروزه
راه باشد

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخرى الا أنه في هذا المقام
كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارىء في كلامه ان جبل القلال هذا
تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربى من
اوربة التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا لجغرافية أبى الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة
٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفنس في القرن الثامن وفيها بعده في القرن الذى نحن الآن بصدد
معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الافرنج .
فالمكان الذى وصفوه لا ينطبق الا على فرسيناتوم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى
أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس
لكان الوصف الذى وصفه هذان الرحلتان لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام
ابن حوقل بنصه)

بقى علينا أن نفسر كلمة قلال التي أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تتحمل تأويلات مختلفة في
الاطلس التي وجدناها في مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوى للرواية الفارسية من كتاب
الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلاً هرمياً وأما في الاطلس التي في المخطوط العربى فانتا نجد هذا
الجبل يرتفع تدريجياً فيكون اسم جبل القلال مطابقاً له

ولم يبق شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت ، ولكن المسيو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في سانتروبيز الذي بحث بحثاً دقيقاً في هذه المسألة

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل تد رات في أناس آسية فكاتب العجم سموه كولا فلان كلمة تفيد معنى جبل القلال واتا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلال جزيرة است ودر كوهى است ودر روزگار قديم خراب بوده است وناسكون جون اسلام قوت كرفت ازن مسلمانان انجا افرادلدانجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روى فرنگ باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنك باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة او شبه جزيرة واحة في وسط ساسلة جبال كان هذا الجبل في الماضي مهملا غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المساهين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الافرنجة الذين يمحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلال مستمر

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبيل عجائب المخوفات للقزويني واسمه كاسمه وموضوعه كموضوعه الجملة الآتية : قلال كوهى است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالحيه افرنجيه نهادند واكر اين كولا نبودى اسلام برنج امدى

أى جبل القلال جبل واقع في وسط بحر الروم وكان خرابا وانهد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل في جهادهم للافرنج ولولا هذا الجبل لسكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنهيه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Le VIII على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذي يحمل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت مقاله رينو في كتابه فتوح المساهين بفراسة من صفحة ١٥٧

الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً على فركسيناتوم وأما قوله ان العرب يحملون هذا الجبل من ضمن الانداس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوبي اوربة الى الغرب فأظن انه غير مصيب بل السبب في ذلك هو ان جبل

القلال كان تحت حماية ذفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه الأنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال : ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيما خليفة قرطبة الذي كان هو الحامي للمستعمرة العربية في فركسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فركسينة كانت عاصمة الممتلكات

الاسلامية في فرسة وسويسرة وايطالية الشمالية. وهذه الأهمية التي أشار إليها ابن حوقل والاصطخري لم تكن بل جزيرة سردانة وعلى كل حال فاني أظن الآن ان جبل القلال هو فركسيناتوم ويبقى مع هذا مجال للبحث للوصول الى الاقتناع العلمى المبني على الحجج القاطعة. انتهى كتاب محمد القاسى

رئيس جمعية طلبة شمالى افريقية في باريس .

يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واختاروا قمة من الجبل لانشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الاشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن المكان لا يزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لاغير . ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعولون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وحنادق عميقة . وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت . واننا نرى رأي بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتقى الى مصارعهم همة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادلينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس في بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تعلقاً وتسليقاً حتى وقفوا في أعلاها . وكانت مملكة آرل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجه ملك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريباً وصارت ثغوره عورة وكان الزمنديون يعيثون في قلب فرنسة وكادوا احدى المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاشت
وخربت جانباً من ألمانيا ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسة

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضائق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنييس
Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيمونت ، في وادي سوزة . وكان
رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير
من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير
الا راهبين بقيا كحراس فيه ، فنهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس
جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة مورأورى : وفيه أنه كانت هناك

كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراذ Helderad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها
وفر كثير من الاهالى الى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير
أولكس Oulx فاقتص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان
بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير اولكس التي نشرها ريفانتلا في تورينو سنة ٧٥٣)
وكان الاهالى قد اجتمعوا وثاروا بالعرب ، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو ،
واعتقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموا الأصفاد التي
كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافتلوا وكادوا يحرقون جانباً من المدينة . ثم ان العرب
قطعوا المواصلات بين فرنسة وايطالية ، واحتلوا جميع مضائق جبال الالب ، فصار
مرور الناس عائداً الى اذهم . وسنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى
رومة لهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لا يسمحون لاحد
ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً . ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت
ومونفerrat Montferrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل
لنغدوق بقرب اينمورط ونهبوا دير التريل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل
ثم اعيد بناؤه

وكان صعد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي
تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمن ملوك الدهر

نقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من امرائها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الناصر على المسلمين ، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيس وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن . الا ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالمظفر ، فهزم جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانية واكتسح جانباً عظيماً من غشقونية ووصل الى ابواب مدينة طلوزة ثم اصيب في رجوعه بفشل اذهجم عليه. غرسية بن حنشو أو سانجه كما يقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها (١)

(١) جاء في تمج الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلم حتى صفا له الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء فمن غزواته أن غزا سنة ثمان وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستنجد بالبشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعائل وخرب الحصون وأفسد العائز وجل فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم وبلغه انتفاض طوطة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ، فملك سبته وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجه بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طوطة » وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونة ورد عليها الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنين وعشرين غزا الى خشمة ثم رحل الى بنبلونة ، فبجاءته طوطة بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردير بن اردون فتحامى عن لقائه ودخل خشمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيراً من معاقلم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء في كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولى الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد ، لم يقابل به أحداً ممن خالفه

فامتد الصريح في بروفس ودوفيني وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسلية أيضاً قد نالها عيشتهم ، وخرب العرب كنيستها العظيمى ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش في تاريخ بروفس وغويز في تاريخ هيو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في ايديهم احياء^(١) ، وفر مطران اسمه « اودول ريكوس » الى مدينة « رنس » في الشمال . وكان العرب يسبون نساء البلاد ويبنون بهن بما نشر سلاتهم فيها ، ولاشك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يزالون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayeul في مجموعة البولنديين ان القديس الذي كان أهله اغنياء من ابنيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في انبرون Enbrun القديس ينديكتوس رئيس الاساقفة ومطراناً آخر معه . وجاء في تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الاغلبه ، واستولى على ماني يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حاتمها واستذل رجالها وهدم معاقلها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبق من أهلها ، وأذلهم بعسف العيال غاية الاذلال ، حتى دانت له البلاد واتقاد له أهل العناد ، فمات ابن حفصون في حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم ، وساروا في جنده

ومالك « بيشتر » وبنائها ، وحسنها ، وهدم كل حسن غيرها . وذكر أنه إنما استبقاها عدة لنفسه واولاده ، ليلج اليها ، لمسا كانوا يحدثون في الآثار من أن فتناً تهيج في الاندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخربون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن حسين سنة في عز منيع وسلطان فاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتي بجزء الحايمة عبد الرحمن الناصر الأموي على أم وجه ان شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الاندلس

(١) نحن ننقل روايات مؤرخى الافرنج في الفرون الوسطى على علاقتها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولاسيا ما كان منها مكتوباً بأقلام الفيسيين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في انبرون كان العرب نزلوا بها وبواسطتها
ملاً وتلك الناحية خوفاً وكان القديس لييرال قد انتخب خلفاً للقديس بندكتس فاراد
ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع
من حيث أتى

وكان من عادة اهالى فرنسة واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة في
العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بد من علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كما لا
يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدي العرب ، وصار هؤلاء يعتقدون على
السابلين ، ويرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون
ان تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخى فرنسة

وفي تلك الايام وصل المجرار الى فرنسة ، وملاؤا البلاد عيشاً وتدميراً ، ورأى
الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن ياجوج وماجوج . ولما كانت سنة الالف للمسيح
ظن الناس انها قد اذفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن
صححة هذه المسألة وهل المجرار هم ياجوج وماجوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران
قائلاً له : ان من اشراط الساعة أن يأتي ياجوج وماجوج ومعهم شعوب اخرى ،
والحال ان المجرار جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على انه من المحقق انهم
في العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بيمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب . روى مؤرخ دير
نوفاليزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى « فارسل »
فداهمته عصابة عربية في احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما
ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على
الفدية ، وبقي عم الراوى وخدمه في ايديهم . وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك
فعلم بالخبر والتزم ان يجول في المدينة وان يقترض مبلغاً من المال ليفك به ابنه مع
خدمه . وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود ليغورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند^(١) الذي عاش في الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكي Aquici احدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المعدنية ولكنهم انهزموا في تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والاولاد

وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاليه Valais من سويسرة فجاء العرب ودخلوا هذا الوادي واكتسحوه وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس^(٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على مافي تاريخ غالبية كرسثيانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير

سنة ٩٠٠

وجاء في مجموعة الدون بوكه ان العرب استولوا على ناحية تارتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسة الى ايطالية ، فوقعت في يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاليه تقدموا الى أواسط كورة غريزون^(٣) وكان هناك دير شهير اسمه دير دي زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ الساني من أشهر المؤرخين ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة في لونباردية نشأ في معية الملك هوغ في بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل في خدمة خلفه برنغار وتوفي سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالي الامبراطور اوثون الكبير

(٢) سان موريس بلدة في وادي الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السپيلون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هذه القصة الى دير القديس موريس الذي فيها وهذا الدير قد بناه سيجيسموند دوق بورغونية في القرن السادس للمسيح حسبما روى لي القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً منقياً عن آثار العرب هناك كما سيأتى الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجرده من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار » . روى ذلك المؤرخ اشبريخر Sprecher . وقيل ان المطران فالدو Wualdo شكاً سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور املاً كاعلى سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦ . ورد ذلك في مجموعة تاريخية المانية طبعت في كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لملكة بورغونية

وكانت الحرب في تلك الايام مشتعلة بين ملوك اشتورية وناباره من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتواقف الفريقان عند زمورة ، فانهزم المسلمون في تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف^(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

(١) هذه الواقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه في تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شنترى على عبد الرحمن الأموي لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلالة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالة فانهزمت الجلالة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية . وخوفه ورغبه في الغنيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش الى بلاد الجلالة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما في أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغاز الأحرار باقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض اليه جليل أموره والجالأ أكبر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبج هزيمة واتبهم العدو أياماً بأسرونيهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكذب ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر السعودي في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق

يجمع جميع قوى المسلمين في الاندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكته ، وكان في استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي اخذت تجاذب الدولة الاموية الجبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجوس في مقاطعة الفاربلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذأهلها بالفرار وتركوها كجوف حمار ، واخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفسن فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اعم معقل لهم هناك هو حصن فراسينت الذي منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطالب منه ان يجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها . ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر . وجاء الاسطول الرومي من البحر فاحرق مراكب العرب التي في الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بان بيرانجة Berenger الذي كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم ربح الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

.....
خمسين ألفا وقيل ان الذي منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد خوفه الكمين ورغبه في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الواقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلالة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالة ضعف ما قتل من المسلمين في الواقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية وردمير ملك الجلالة الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودي المعاصر لتلك الوقائم .

من العرب وأسرع الى مهادنتهم بشرطان يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الالب على بيرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذي بهذه المناسبة أحش الطعن في هوغ وقال انه جاء بها صلحاء لاسبيل للعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصناً واقياً للطغاة الذين يقال لهم المورو افلاتنججل ايها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشري ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمرى جدير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أدياً ! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أدياً في قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالي ويحرقون ويزرعون كسائر الفلاحين وكان امرآء النواحي يكتفون بان يأخذوا منهم إتاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحيان . أما الذين كانوا في أعلى الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذي كان يسمى من قبل بجبل المشتري فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين فاله Valais ووادي أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وايطالية . ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقه) تابعة لمملكة آرل وكانت أيضاً تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس ، لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضاً مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادي المريع المسمى وادي غرازيفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat في فلانس الى الشمال . ولا يعلم تماماً في اية سنة دخلوا

عرا نوبل وانما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت
كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرانوبل .
والغالب على الظن ان مسلمي بيمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معاقل كانوا
يعتصمون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنا من هذا النمط كان
يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر
البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فركسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذي
يسمى الآن فنسترا Fenestralle

وعلى كل حال فلينظر القارئ الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ
دير نوفاليزه ، فقد قال . ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والخيول وغير ذلك وكان
قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً في الغنائم ف وقعت في أيديهم
مرة امرأة بارعة في الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية
وانزع تلك الحسناء من يد ايمون بالقوة فغلت مراحل الغضب في صدر ايمون وثار
للانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس (١) الذي كان صاحب السيادة في بروفنس
العليا وكاله بالسر الخفي في قضية طرد العرب من البلاد . وكان للعرب سعاة وجواسيس
في كل محل فاجتهد ايمون أن يكتم مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار
الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالي وهاجوا
العرب وأخذوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن
عائلة ايمون هذا كان لا يزال منها بقايا الى زمانه

وفي سنة ٩٥٢ كان المجرار قد اكتسحوا الالزاس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه
Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كوزاد الذي كان اميرا على بورغونية وسويسرة
وفرنشكونتي ودوفيني في تدبير حيلة للتخلص من المجرار والعرب معا ، فكتب الى العرب
كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجرار قد سمعوا بنحصب الاراضي التي في أيديكم وهم

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس الثاني كونت فوركالكية الذي كان

يعيش في نواحي سنة ٩٤٥ على ما في تاريخ بروفنس للمسيو بوش .

عامدون الى انزاعها منكم ، فتعالوا الى" لزحف اليهم معا ونبيدهم . وفي الوقت نفسه كتب الى الجار قائلا لهم : لماذا ينازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بايدهم أنخصب البقاع ، فتعالوا الى" لزحف اليهم ونطردهم وحينئذ أنا اجعلكم في مكانهم . قال هذا وعين للفريقين مكانا للقاء فحضر الفريقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان الكنت قد حشد عساكره وكن لهم جميعا فلما اشتبكوا في الملحمة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل وبيعوا في أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما في أى مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلى في بروفنس وكان الجار في الازاس وفرنشكونتي فالظنون ان هذه الواقعة حصلت في نقطة متوسطة كائن تكون مثلا في السفواى . وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا في السفواى وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التي تطلق على المسلمين المغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن المطران بيلية Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواى فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان Modane اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحدا إلا رشقوه بسهم ، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير في الأوعار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجا في أماكن متعددة يقال ان آثارها لا تزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. وذكر مؤرخ دير سان غال Saint - Gall في كتاب داخل في مجموعة برتر أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصابة من الرجال الأشداء وسلحهم بالحرايب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بفتة ، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه ، وساقوا الاسرى الى الدير ، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا ، فماتوا جوعاً !

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على الحجار ، وكسروا شرتهم ، فنشقت سويسرة نسيم الفرج . ولكن البروفانس والدوفيني وجانبا من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر . وكانت هذه البلدان لا تستريح ماداموا فيها . وكان الرجل العامل المدبر اذ ذاك ، بين ملوك أوربة ، أوتون ملك جرمانية الذي لقب فيما بعد بالامبراطور والذي استحقت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل اوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامى لمستعمرة فراكسينيه العربية، فعزم اوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد جاء الى اوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحي ، بحيث اعتمد اوتون بخاصة أن يجعل في سفارته الى قرطبة عالماً لهوتياً يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين ، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان يبلغ من تضرعه في علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالنصر .

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغت قرطبة لذلك العهد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة ، والكنيسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها ، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر ، وكان يرسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانية وفرنسة والمانية وبلاد الصقالبة، وكان ملوك المسيحيين - بحسب قول مؤرخي العرب - يسطون

أيدى الخضوع للخليفة ، ويعدون شرفاً عظيماً لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك لجلالة قدره في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لاسيما وقد ملك الروم ، يبالغ في الاحتفال ويتكلف الكلف الثقال ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وبإظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفخر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الاسلام وإظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنائة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين (١)

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسول صاحب القسطنطينية ، قال : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكا وزين القصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الابناء والاخوة والأعمام والقراية ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم ، ودخل الرسل فهاهم مارأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازة وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجوا وشرعوا في القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالى واند العراق كان في جملة الحكم ولى العهد ونديه لذلك استثنأاً فعبز .

فلما وجوا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى ، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشئ من ذلك فخطب واستحضر وجلى في ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في الغرض . ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقم ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجال العالم . وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة . ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالبة ، وهو يومئذ دقوه ، ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت ، وهو يومئذ أوفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق ، وهو يومئذ كلدته ، واحتفل الناصر بقدمهم وبعث مع رسول الصقالبة ريباً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسا ، فإنها وان لم تكن محفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقي لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى «فيين» Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذذاك تابعة لمملكة فرنسا . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة (١) فلما وصل سفراء ملك افرنجة الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالمسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانباً عظيماً من جزيرة

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فرداند قومس قشتالية في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتالية فردلند المذكور ومال الى أوردون بن رودمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكينس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووقدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حائدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلائفة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند (قومس قشتالية) في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعاقته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالمرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار . وسنستوفى ان شاء الله وصف الناصر وأهله خلفته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاهنا وانما نقلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبد

الرحمن .

الأندلس ، وهم في ضيافة العرب بالمعهد من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتكلموا
انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا براً وترحيباً وانزلوا في محل على مسافة ميلين
من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف تبليغه من قبل ملك فرنسا ،
فأراد أن يتجنب المباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لاثقا بمقام اثنين مثل الخليفة
والملك أن يدخلوا في مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من
الرسول (ﷺ) ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة (١) واقترح الخليفة أن يعد كتبه
الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ،
وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأخشن له الجواب
وأخذ يقرعه على هوادته وتساوله وتساهل جماعته في أمر الدين المسيحي ، وكيف أنهم
قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسaire للمسلمين . ولما علم
الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لا يثنى عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل
اليه قائلاً انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيراً عنه فانظره ثلاث
سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع
سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات . فأجاب الراهب بأنه لا يقدر
أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا
آخر يسأله عما اذا كان لا يزال مصمماً على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ
الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون
من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام
بها في بلاد النصرى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك
النصرى مسيحيين ، وكثيراً ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففي تلك النوبة انتدب
لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيوندس» كوفيء فيما بعد على المهمة التي قام بها

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو
بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولايستتاب ولايمهل

بجعله اسقفاً وكان يحسن الاتينية والعربية معاً. ويظن بعضهم أن الأسقف رسيمونديس هذا هو نفس رمنديس الذي كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولاً باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولى من قبل الخليفة أجابه الملك الى كل ما اقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لا بد له اجلالاً لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقة فأجابه الراهب بأنه لا يجد لبسا أبهى ولا أنخر من ثوب رهبانته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملابس اللازمة ، فبعث اليه بعشر أقات فضة ، وكانت الأقة اثنتى عشرة أوقية ، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه في كيس خيش

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفت المساكر على الجانبين ، ووقف البييد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسي . وكانت هناك الفرسان تلعب في الميدان وفي هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمامه مداخل القصر بالبسط والديباج، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذى فيه الخليفة، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تمييزاً له عن غيره فقبلها الراهب، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة فى الجملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون وما بلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء. ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون نار على أبيه أنحى بشيء من اللائمة على الملك قائلاً: انه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى فى ذلك عاطفة اشارة الى شىء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فانتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التي جاء بها الراهب سفيراً ؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم ، لم يكونوا يذكرون شيئاً عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثهم الغارات الى الداخل ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يأبهون لهذه الحادثة ^(١) على أن المؤرخ ليوتبرند الذي عاش في ذلك العصر يؤكّد أن تلك المستعمرة العربية في جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه ، وصاحب الرسالة التي نحن بصددّها عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك اوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب في فرنسة وايطالية . ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع في أهم نقطة من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة .

هذا وفي سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الواقعة . ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذي بنى ملبجاً في أعلى هذا الجبل ، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان هو نفسه في هذه المعركة .

ومات عبد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ فخلفه ابنه الحكم الثاني ، وكان ملكاً محباً للعلوم والمعارف جانحاً الى السلم ، ففي أيامه ازداد عكوف الناس في الاندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشاً وغلبت الكياسة والرقّة ودماثة المدنية على أولئك الأقوام الذين كانوا في مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما في زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللاتي كان منهن العلمات والفاضلات وصاحبات المكنانة في دار الخلافة . وكان الحكم في أوائل أيامه ، استجلاباً لثقة المسلمين به ، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا في حواشي هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها : انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطلع على رحلتي الاصطخري وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم يغفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتاونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) نعم انه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان دك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقاً بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب (١)

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلائقة في الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردنرد بن غنتشاب فنازل شنت اشتاين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقلق قبادروا إلى عقد السلام معه وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلائقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم ، واطأ العساكر بلد فرداند ودوخها . وكان شانجة بن رومير مالك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجبي صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلائقة لنصره فهزمهم ، وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ، وقلق . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجبي إلى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر في نواحيها . وأغزى هنذيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس فعاثا فيها وقلقا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلموية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قطوية على يد قائد وشتة وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأثاث وفي سيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى .

قال : وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت في هذه السنة مراكب الجوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل . ثم كانت وفاة اردون بن اذفواش ملك الجلائقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير ، وهو ابن عمه ، وهو المملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتالية توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمه وعى العساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديهم ، وكان الملوك في منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعد بال نصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والحملات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شائجة بن ردمير يبيعه وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرها يسألان تجديد الصلح واقرارها على ما كان عليه وبيثا بهدية وهي عشرون صبياً من الحصيان الصقالبة وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلبية ومائتات سيف فرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شائجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، ففقد لهم الحكم . فاغتنبوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم أم لذريق القومس بالقرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلفيها أهل دولته واحتفل لقدمها في يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هي وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلوات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدو ، من المغرب الأقصى والوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرههم وزاحوا بها دعوة الشيعة فيما بينهم . ووفد عليه من بني الحرز وبني ابى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بني ادريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية . وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب في أنواعها بعالم يجمعه أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرني تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة واربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لاغير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقاً جلبت اليه بضائعه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجر واستصنى جميع ألمانيا اجبر البابا على تتويجه بتاج الامبراطورية وتغلب على برانجة ملك لونباردية ، وخرج هدامن مملكته شريداً فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتز أن ادالبرت استعان بمسلمي فركسينت .

وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندونات من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أكابر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالي من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادي غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت بيدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التي يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصنى الأسقف إيزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو علي الفالي ، صاحب كتاب الأمالي ، من بغداد أكرم مشواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجلاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، الا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور ابن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إيها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقي جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين في تلك الاصقاع كانت قد أخذت تتراجع الى الوواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى في التخلص منهم تماماً ، ففي سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي ، الا انه مات قبل أن يحقق وعده . وكان في ذلك العصر رجل لا يذكر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذى كان قسيساً في بلدة كلونى Cluny في بورغونية ، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه ل مقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفي اياه من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفيني ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم فى الأعلى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسير (ولا يزال هذا المكان معروفا الى اليوم) فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تنتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجم الغفير . وما وصلوا الى ضفاف الوادى سائرين فى طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب برشق من السهام من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم فى الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح فى يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لا يطمع الانسان من ورأئهم فى مغنم فدنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب فى دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوتوا معه على

خدية تبلغ مايساوى ألف ليرة من الفضه أو ثمانين ألف فرنك من المماثلة الحاضرة .
وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلونى ليحمل اليهم المال وضربوا
له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسأر الأسرى
فكتب القديس الى الدير قائلاً : الى آباء كلونى والاخوان الذين فيه مايول
المسكين أسير مكبل بالقيود الخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل
من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أكف ذوي الجمة وجردوا
الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ماوقع فى أيديهم من المال لفسكك القديس
ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم
وكان القديس فى أثناء وقوعه فى الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلاً لهم : ان
الذى يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشىء . فعند ما سمعوا منه
هذا الكلام هاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه
فيه ثم أنهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء
أحدهم وغسل يديه وأصاح له طعاماً شهياً ووضع بين يديه بكل أدب . وكان مع
القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلامه
رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدر جميع الكتب
السموية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا
انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد
بقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم .
وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه فى سنة ٩٧٢ فصار لها دوى عظيم فى
الاقطار وضح لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثأر وكان فى
نواحي سيسترون Sisteron فى قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون
Behon كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهز هذه
الفرصة التى كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان
وسكان البوادي والحواضر ممن يغضبون للدين والوطن ثم بنى حصناً فى نواحي

سيسترون بازاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة و يتقحم أول ثلثة . و حاول المسلمون أن يعرقلوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيترة انبيه » Petra - Empia و بينا الفريقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكل اليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعلة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا وذبخوا المسلمين وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين ان يتنصر فهؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جملتهم القائد وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا فى مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية (١)

وفى الوقت نفسه كان أهالى غاب (٢) قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم . وجاء فى كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلمة الالهين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بياتا فى جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضى وتركوا النصف الآخر للمطران والكنائس . وهكذا تحررت بلاد الدوفينى وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

وان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . ومن يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عفى آثار العرب فى « غاب » فان غاب كانت من توابع بروفنس . وكان غليوم كونت بروفنس محبا للعدل محافظا على الديانة برأ برعيته فأحبه رعاياه حبا جما . ولما استنفر أهالى بروفنس ودوفينى السفلى ونيس لقتال العرب لبوا

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند . وقد بدأ هو بها وأكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

تدائه ، فلما اجتمع اليه الجهم الغفير منهم قصد أن ينهد الى العرب في فر كسينت ،
وعند ما علم العرب أن أهالي البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم
مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينمان
Dragengman في مكان يقال له تور توتور Tourtour حيث يوجد الى الآن برج مبني
منذ ذلك اليوم ، تذكر تلك المعركة ، فانهزم المسلمون والتجأوا الى حصن منيع .
ولكن المسيحيين أخذوا بمخنقهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلاً ويلجأوا
الى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالي البلاد وتغلبوا عليهم ، فقتل أكثرهم ، وأخذ
الباقون أسرى^(١) وجميع من وقع في الاسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي فرنسة وقال من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا الى
البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو إلى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herhelot
في «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة افريقية انه
في ذلك الوقت أي نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكين لجزيرة سرديانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح
مصر كان أقام بسرديانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ
سرديانية وزعم «دلبين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضا وهي التي يقول
لها العرب قرسقة .

ويقول دلبين انه كان لهم أمير يقال له «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروقنس جيشاً انضم
اليه الجنوبيون . ولاشك أن دلبين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذي كان أغار على سرديانية وكان
البيزانينيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سرديانية متأخرة عن
هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامري من ممالك الملك الغازي الشهير المنصور بن أبي عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد
تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سرديانية . ترجمه ابن عميرة في بنية الملتمس
فقال : مجاهد بن عبدالله العامري . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد .
كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجرأة ، فلما
جاءت أيام الفتنة وتقلبت العساكر على النواحي بذهاب دولة ابن أبي عامر قصد هو في من تبعه
الجزائر التي في شرق الأندلس ، وهي جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه
الجزائر ميورقة ومينورقة ويابسة) ثم قصد منها في المراكب الى سرديانية (جزيرة من جزائر الروم
كبيرة) في سنة ست أو سبع واربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقها .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر
واندمج في الأهالي ، ومنهم من بقى مسلماً ولكنه أصبح رقيقاً مستخدماً إما في

ثم اختلفت عليه اهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً في تفرق من
يشغب عليه ، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه ، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال :
أبنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال ان أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قال : كنت مع
أبي الجيش مجاهد في سردانية فدخل بالمراكب في المرسى نهاه عنه ابو خروب رئيس البحرين ، فلم
يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف
لاشغل لهم الا القتل والاسر للمسلمين ، فكلمنا سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى
صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح
الى أن يقول : قد كنت حذرته من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فبجريعة الذقن ماتخلصنا في
يهير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية
ومايلها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من الكرماء على العلماء ، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء ،
وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوى تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي
ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب البناء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد
ابن الحسن اللغوى وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب أهداهما اليه قصيدة أولها :

أنتنى الخريطة والمركب كما اقترن السعد والسكوكب
وحط بمينائه قلعة كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها البناء على هامة المشتري ينحطب

الى أن قال

مجاهد رضى إباء الشمس فأصبح مالم يكن يصحب
فقل واحتكم فسمع الزمان مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف في العروض كتاباً يدل على قوته فيه . ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس
أحمد بن رشيق وتعويله عليه ، وبسط يده في العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية في
سنة ٤٣٦ .

وجاء في معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانية في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير
والذى قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذى فتح مبه رقة واخواتها ولعله
غزا سردانية .

أراضي الأديار أوفى أراضي الزعماء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة .
كما سيأتي الكلام عليه .

أما سقوط حصن فر كسينت فقد وقع في سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن في أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأصلي لجميع العرب المنتشرين في داخل فرنسا وشمالى ايطالية وفي سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملائ بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جييلين غريمالدى » الذى كان من أهل جنوة فانه كوفى على اقدمه بالاراضى التى كانت في منتهى خليج سان ترويز . وممن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلال بهذه الحرب مسيحي آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Gastallane في مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء في تاريخ ابن عذارى المراكشى المسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سرديانية في سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التيمى فأصابوا وأصيب منهم ثم قتلوا .
وقد اطلعت في مدينة جنوة على تاريخ بالطلينانى لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريديسى دونافر »
De Naver جاء فيه انه في سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سرديانية وتغلب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه في سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوبية عنابة . وانه في سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوبية والبيزانية ، ومعها اسطول امانى (بقرب نابولى) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بقدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة في زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

ومما جاء في تاريخ جنوة هذا أنه في مدة ١٣ سنة غزا الجنوبية ثمانى غزوات في بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس الشام كان على أيدي الجنوبية في ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير يانشى قائد الجنوبية تولى مدينة جيل ثم انه في سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى في حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنوبيون مع غودفروا دو بويون في فتح القدس وفتحوا سور وقبارية .

هذا وجاء في تاريخ الخلفاء للإمام السيوطى أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة في شوال سنة ست وثمانين وانه في سنة ٨٧ فتح سرديانية من جملة فتوحات عدها وانه في سنة ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضا قد أجلوا عن مدينة ريبز في (الألب السفلى) فانه في كل سنة يحتفل أهالي هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة . وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتهدم كثير من أديارهم فلذلك كانوا هم دائماً في طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فقال أساقفة فريجس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وفي طولون وقع نزاع بين الأهالي على الأراضي التي كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فثرت آثار التملك القديم واصبحت الحدود مجهولة . فجاء الكونت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الأديار والأهالي والامراء ، وأرضي الجميع . ولذلك بقي لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبي الوطن .

فقد تقرر اذاً أن سقوط حصن فركسنت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وانه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شيء في أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم دالين المار الذكر يزعم بقاء المسلمين في جبال الالب مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ بل الى ما بعد سنة الألف ، ولكننا لا نثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عربية في جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسنت فلا تكون عصابات محاربة بل تكون عصابات مستسلمة وقد اردت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثاني في قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالمنصور وكان آية باهرة في البسالة والاقدام وحسن التدبير بل منه النصراني يباقة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخبا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال ويمرهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تهزم له فيها راية ولا ولي جيشه مدبرا (١)

وكان المسلمون في الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصارى وهزموا لهم جيشا ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور واناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنتشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب في جميع اسفاره التابوت الذي يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عاداته أن ينفذ الغبار الذي يعلق بثيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة في قشتالة وليون وناباره وآراغون وكتلونيه الى أن وصلوا الى غاشقونية وجنوبي فرنسة

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامي من قبل ، وسقطت مدينة شانتياقب من جليقية وهي أقدس معهد مسيحي في اسبانية في أيدي المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

(١) لي من قصيدتي الأندلسية التي نظمتها بعد وصولي الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر يجاوبك عنه كل قوس موتر
غزا في العدى ستا وخمسين غزوة فأب بها طرا بصر مؤزر

القديس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد المنصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شانتياقب الى قرطبة وهي مسافة ثمانمائة كيلو متر ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عندما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الأجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شانتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .
وفي أيام المنصور (١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتى في الأجزاء التالية على كل ما يتصل بنا من أخبار المنصور بن أبي عامر الذي يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الاندلس لافي تاريخ فرنسة ، ولكن من حيث ان المستشرق رينو أشار الى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلى هذا الجزء أيضاً من شيء من ترجمته ، فنقول :

جاء في فتح الطيب مايلي : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصرارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا « وللكعبة المثل الأعلى » فيها يحلفون واليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثني عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطعم أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة بورنية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتسكين بالطاعة ، في رجالهم وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المساهين وركبوا في الفاورة سبيلهم ، وكان المنصور تقدم في انشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي وانس من ساحل غرب الاندلس وجهره برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأتوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة ، الى أن خرج بموضع برتغال على نهر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هنالك من هذه الاسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك ، ووجه المنصور

ملوك النصارى بأجمع أصحاب ليون و نابار وقشتالة وسائر القاطعات المسيحية ، ونبذوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصبة واحدة ، وتسلح الأساقفة والقسيسون

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلصان يمدها البحر الاخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منية وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط يلبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبوا من فيها ممن لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة ففودرت هشياً كأن لم تفن بالامس وانسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش متقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقره عائناً ومفسداً حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالنكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه في غزاه هذه للملك الروم وبلغ حسن غناؤه من المسلمين الفين ومائتين وخمسين وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سفلاطونا وخمسة عشر مزيفاً وسبعة أعماط ديناخ وثوبين ديباخ روى وفروى فتيك ،

وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الواقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل ويقيت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الأخرى ، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم فقبل له أنهم سقطوا صرعى في المصاف ، فلم المنصور أن العاقبة وبيلة والثالث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي التابوت الذي كان يحمله معه ليدفن فيه . ولا يزال قبره معروفاً في مدينة سالم (١)

ووافي جميع العسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشئت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالكف عنه . قال : وحدث شعله قال : قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا شعله الملك لا ينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقله من الكتاب المذكور

(١) جاء في الفتح الطيب نقلاً عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفي في غزاته للفرنجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء في الفتح من جملة مناقبه أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازلهم حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويرها في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أ كفانه ، توقفاً للحلول منيته ، وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف في مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالثناء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهد من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevallerie» والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة الملهور اياً كان . وهذا أمر لانزع فيه الا ان المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى « مشاهد الاخلاق العربية في اسبانية في القرن العاشر » قد تجاوز الحد في زعمه . أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على ما قاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو (١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة في اسبانية (٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحمية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسر بدره منذ ذلك الوقت . وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الاندلس أن يترجعوا بلاد آباءهم وأجدادهم من ذلك الحين الا انهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت المداوة بين نبار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذي كان معروفاً في اوربة في القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيل بك غالى من أفاضل المصريين الأقباط كتاب نفيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء في النسخ : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرم وثارَت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلائفة لاسترجاع معاقلم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسبما تقتضى مصالحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتنة التي وقعت في قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحي كتلونية الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل (١)

(١) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، في الحجز على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بداله الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليه عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ما طلب وأحضروا لذلك الملاء من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد

وكانت هذه هي الفلطة الكبرى التي بدأ بها اقراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الاسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركت الثغور عورة ، واوجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلاً ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء في النسخ ان أهل الدولة تقموا على عبد الرحمن (ولى العهد) ما فعله مما كان فيه حقه واقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون ، ففصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية الى اليمينية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ، في غزاة من صوائفه ببلاد الجلائفة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعد من باب قصر الخلافة ، وخلعوا هشاماً المؤيد الذي ولى عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدى بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الشرف فانقض جمعه وقفل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى وأغروه بعبد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وجمله الى المهدى . وذهبت دولة العامرين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمي اسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحصر أجنتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه الملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

قال : وكان رؤساء البربر وزناتة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرهم للعامرين ، فلم يلبثوا أن سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدي فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالتهم وأسروا نجواهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجهم عن المدينة ، وتقبضوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرهما بين يدي المهدي ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيهما واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش في جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدي ومن معه ، وقتل في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة ، ولحق المهدي بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدي قرطبة وملكها ثانية

وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يقفون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن اذفونش لقتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدي وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانياً مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدي وقتلوه ، ظناً بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامري بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرة فبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسموا اليهم الحصون والقلاع التي كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الاذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المعرات في أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزالي في قرمونة والغرني في وندة ، وهزرون في شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيبه الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دول صغيرة كبنى عباد باشيلية ، وبنى الاقطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أبي عامر بيلنسية ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر . انتهى تقلا عن نفع الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقل الملك الى آل كابت Gabet فكانوا أجدر به من المتأخرين من سلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملاً عظيماً من عوامل

وقال ابن عذارى في كتابه « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقباً لربه باكياً على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة . وله في بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممقصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذارى انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وافاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلائفة وصاحب قشتالة وألبه ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة ، وافين بالعهد حافظين للحرمة ، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الاعلى . قال تقياً عن حيان بن خلف انه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقسطة ثم الى وشقة ثم الى بربشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتالة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند ، وهي غزاة قلوونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها ، فهزمه عبد الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالثانية ، وهي السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها تقياً عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محفلاً لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بمجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة . وكذلك تنصر المجرار
وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها
وتنهب الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس مايسمى بالحرية البلدية
مما أدى في آخر الأمر تدريجاً الى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم
المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل
فرنسة لم تسلم من غارات المسلمين الى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون
اندلسيون في أرض أنطيب أو عين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى .
وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أريونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم
قتلوه وأسروا منهم عشرين رجلاً كانوا في غاية الطول والعظم ، فإرسالهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده
ونقصت من حفيظ عدده ، ورام مع ذلك كله الاقتحام على أعداء الله في حل تقووه طمعاً في اتمام
غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك والقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل
امه بنت شانجة النصراني الملك تذكراً منها لاسم أبيها فكانت تدعوه في صغره بشنجول وكان أشبه
الناس بجمده شانجه) فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأفقق الأموال في غير وجهها ، ثم لما مضى
لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يوليئه العهد من بعده ، وأن يتسمى
بولى عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره وتقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان
ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى
تقل المملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصرة في حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت الى انهيار الاسلام في الاندلس مع أسبابها وتفصيلها
بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك في الأجزاء التالية . وقد ذكر في عرض
كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم
شوارع قرطبة فقال قولاً نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من
المسلمين غيره للنبي : ألا تنكرون ما تسمعون أما أتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة :
امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد

مارسيال في ليوج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين و فرق الباقين على أصحابه . وجاء في مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية .

وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة لارين Lerins (١) واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سانت فكتور في مرسيلية الى الأندلس لاقتكا بهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامري الذي استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujet أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقي الرعب في سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوه . وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسا تتوالى ولا تغيب طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسا البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسا لجزائر الغرب (٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيج عند مصاب نهر الرون التي فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التي قبالة ساحل الفار وقد جاء في احصاء لمقاطعة مصاب الرون بقلم المسيو تولوزان انه وجدت أوراق قديمة في مارتيج تتعلق باقامة المسلمين في تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحري في أواسط القرن الحادى عشر ، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ، وفي سنة ١٠٥٠ أجلى المسلمون عن جنوبي ايطالية وفقدوا ملكهم في صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا في بعض سواحل افريقية حيث خفت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لا تحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزؤهم في عقردارهم وفقد المسلمون كل أمل في

(١) أمام سواحل فرنسا الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اونورا

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسة والجنوب الغربي من أوربة . وفي سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربي ابن حوقل يصف مسلمي الأندلس بالجن والطيث وقد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذي كان يكتب في القرن الثاني عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردهوا مسلمي الأندلس تماماً في ذلك الوقت (١)

(١) قال ابن حوقل في المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر والرخص والسعة في الاحوال من الرقيق الفاخر والحصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل منهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغلهم وسقوط تكلفه بشيء . يحذره وحال يخافه ، اذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدينار والديراهم ضربيتها في كل سنة مائتا الف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعطائه وضمائنه ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم وتقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم ما يؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة في القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمنعون ذمارهم ولا يقدرون أن يحموا جوارهم

قال ابن حوقل : وليس في البحار أعمر حاشية من هذا البحر ، لأن العمارات في الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتعة وسائر البحار تعترض في شطوطها المفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم في وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحلها بالفارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غيات لهم ولا ناصر ، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامم مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتق بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لا يعاف حراماً ولا مطعماً ، والزاهد ذئب أدرع في كل بلية يشرع وبكل ربح يقلع ، فالثغور والجزائر الى الأعداء مسلمة ، والأرض الى الله من أربابها متظلمة انتهى

ومما يدل على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير الى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها ، فأجابه ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات . ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل الى جنوبي فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب ، فانه لم يكن قد لقي الافرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجنوبية من فرنسة ولكن مسلمي الاندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج في صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيين في حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيولي كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف اليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا هزموا فليسوا بشيء^(١)

قلت : كان هذا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة ما يدل على ان المرض قديم . وانه لا عجب اذا آلت الحال الى ما آلت اليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة الى أن اتكت حلها في القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مداً وجزراً منذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخي العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً في الحروب من الجلافة ، أي من الاسبانيول سكان شمالي اسبانية ، قال ابن حوقل : وثور الجلافة ماردة وقره ووادى الحجارة وطليلة ومدينة الجلافة مما يلي ثغور الاندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلافة بمدينة يقال لهايون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سموره ومدينة لهم يقال لها أوييط (Oviedo) وهي بعيدة عن بلد الاسلام وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلافة ، والجلافة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم في عرض طريق الافرنجة انتهى وجاء في صبح الأعشى عن الجلافة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زيهم أنهم لا يفسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم الى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها : يا أولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرئ في نفع الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة الملوكية (١)

ثم ذكر الفلقشندي مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلائفة زمن الفتنة ، أي زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة ما انتهى أخيراً بضياح الأندلس (١) الذي وجدناه في نفع الطيب للمقرئ هو هذا : وقيل انه أوغل (يعني موسى بن نصير) في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنبا عظيماً كما كالسارية مكتوباً فيه بالقرية عريية قرئت فاذا هي : يا بني اسماعيل انتهيتم فارجموا . فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير فشاور أصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه إلى ما وراءه . فاختلفوا عليه فأخذ برأي جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والتأج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .

وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات . ولأنواع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب ، وأن جميع الغزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربي هو الذي كان غالباً فيها ، وانه كان بمنزلة القطب من الرحي ، وان المراد بلفظة « ساراين » عند كتاب الاوربيين هو العرب لاغير .

فمن أين جاءت لفظة ساراين هذه ؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية « ساراسنوس » التي أصلها اللفظة اليونانية « سرا كنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم . قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقي » لاسيا ان بطليموس الجغرافي الفلكي اليوناني الذي كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر انه أريد بكلمة « شرقيين » التي جاءت منها كلمة « سارا كينو » العرب الذين بقوا في آسية ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هي ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان في بلاد الجار طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح انقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ الجار ويظهر انه لقلة عددها أخذت تذوب تدريجاً في سواد الامة المجرية ، كما ان بعض ملوك الجار القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحلوهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغوردية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلاً منهم استعملته ، عن بلادهم وحلهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية للمسكهم في طرف من بلادهم نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فمما لنا بلاد الصقالبة وقبيلنا بلاد البابا وفي غربيها الأندلس وفي شرقيها بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساننا لسان الأفرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون الا مخالفى الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للإيمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد ونتفقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تحلقون لحاكم كما تفعل الأفرنج ؟ فقال : يحلقها منا المتجدون ويلبسون لبسة السلاح مثل الأفرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : ان قوله الأفرنج مبنى على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوربة افرنجية ، والا فالجار ليسوا من الأفرنج في شيء . ثم انى قد سألت علماء التاريخ من الجار عن قضية هؤلاء المسلمين

أى أبناء اسماعيل ، وهذه هي نسبة موافقة للواقع ، لأن قسماً كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وإن اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون إلى اسماعيل كل ما ورد في التوراة عن اسحق . ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أى سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أى هجارنة ، مجهول عند العرب . ثم إن أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة ، فأجابني الجنرال « تيودور كلوك » معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته : أنه كان يوجد مسلمون أصلهم من البلغار في بلاد المجر عاشوا في أيام الملوك المجر من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح إلى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا في القرن الحادى عشر يعيشون جماعات في جنوبى بلاد المجر ، وكان منهم حراس لقلعة بست ، وكان منهم في القرن الثالث عشر لافي مدينة بست فقط بل في جميع هكارييا ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بقي منهم كثيرون في الباطن على دين آباؤهم . وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لا يكون في القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفي أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيره الرابع أرسل إلى الامبراطور الألماني « فردريك بربروسه » سنة ١١٦١ جيشاً لمعنته فيه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية في مدينة حلب . وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجر أموالاً . وما زالوا إلى سنة ١٢٤٢ معروفين ك مسلمين . ومن ذلك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجرى . وفي سنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تمركنى Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أى مسلمى المجر) في رحلتنا إلى بلاد المجر وبوسنة . وإنما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لا يقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجر لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجر أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

السكان في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكي .
ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذي يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم
النحاسي وانوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقسام
التي يقال لها البرابر قد وجدت في افريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة . وهم
من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان
والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء
البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال ،
وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربي Maure أو الشعب الافريقي
Afri ou Afrecaia

وقد كان بين الأقسام الذين اشتركوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة
جرمانية أو صقلبية . وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين
كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة والى
جنوبها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطين وسريين ومورافيين وبوهيمين وتديروا
بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسما من بلاد اليونان . وكانوا في أثناء زحفهم
يقتتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجر . وكان الفريقان في حروب
دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائما عرضة لغارات
هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطمة الا بعد أن دخل الجرمانيون
والسلاف في النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين
يقعون في أيديهم كالحيوانات بلا فرق ، وكان أهالي هولندا يبيعون أسراهم كالعبيد ،
وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل
هؤلاء البرابرة في النصرانية (١) وتهدبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه في أوربة بمجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل
وبالمقرى . وقد رأينا أن نقل عبارة ابن حوقل عن « المسالك والممالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر
وأفريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع
الأشغال اليدوية وعلى الحرث والزرع ، أما في الشرع الإسلامي فالرقيق لا يهان أصلاً ،
وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى إليه الحر بدون فرق
وكان التجار يذهبون إلى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً إلى نواحي بحر الادرياتيك
والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم
إلى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تتبع من أولادها إلى التجار ، وكان يأتي منهم قسم
إلى فرنسة لألباليع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً في قضية الحرير صاروا يخصون هؤلاء العبيد ليتمكنهم
استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنة . وهكذا تولدت في فرنسة مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبي افرنجة وجليقية
والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الحصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها
يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسي إلى خراسان من الصقالبة
باق على حاله ومقر على صورته ، وذلك ان بلاد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر
الروم ممتداً على القسطنطينية وأترا بزونده يشق بدم بالعرض ، فنصف بدم بالطول يسببه
الخراسانيون والنصف الشمالي يسببه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنية وانكبيدة (لونبارديه
وتوابعها) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله انتهى

وأما في نفع الطيب فيقول عن الاسبانيول انهم : يحاربون بالافق الشرقي أمة يقال لهم الفرنية ،
هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد واسعة جليلة متصلة العمارة أهلة
تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون أمة
الصقالبة المتصاين بأرضهم لمخالفتهم أيام في الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم
هنالك كثرة وتخصيبهم للفرنية يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل
خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد . وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون
ويستحلون المثلة . انتهى

قلت : والخصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين .

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية . وكانوا يتهادون الحصيان من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الحلي الثمينة .

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقلياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرمانى والصقلبي والسلافي بلفظة صقلبي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclave بمعنى عبد . وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة . وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية . وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخاً لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه . (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالي أوربة ومن أصل وثني فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسا . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور واثان ويأتون بهم الى مراسى البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارد ثوري أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشتري بماله من أيدي البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا واثاناً كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

(١) لو اردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلاً

الرقيق . وقد جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أوربة حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وافريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون في الاسلام وفي اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرّون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء في القرآن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلهم دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بحراستها^(١) ولما دخل العرب إلى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الأمر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجلاً ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية ، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وخطبوا في جبالهم . ولقد رأينا كيف أن « مورونت » دوق مرسلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار ؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وبييمونت وسفواي وسويسرة كانوا قد وجدوا من الأهالي أعضاء لهم سرراً وعلناً، وكان مؤرخو

(١) جاء في فتح الطيب ان مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استئمامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبته وصار ذلك لهم شئشنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبه مع قطعة من المسلمين لحفظها ويعضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المختلفين لحفظ ما فتح . انتهى

ذلك العصر لا يصححون بذلك حياء ، ويجتزئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين .
ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية
المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم في قلة من العدد ، في زمن كانت فيه المواصلات
غير ماهي الآن .

نعم ان العرب كانوا يجدون من أهالي البلاد رداء لهم ، وقد رأينا في تاريخ دير
نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا
عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار
كل من أراد يدفع في الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا في سيرة
القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق
انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طولوزة ، وان شارلمان - تأديباً لليهود على
خياتهم - أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى ييهودي ويصنع على باب
الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من
الدرهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طولوزة فعلاً فلعل
هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا
الى لغاتهم فالتنا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية
أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان
الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ،
بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان في البربر عبدة أوثان
ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً في الاسلام الا بعد فتح افريقية بمدة طويلة (١) . ومن
الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

(١) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيين يريدون أن يثبتوا كون
البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تقصد هذه الفئة أن تأفك البربر عن الاسلام . فالمؤرخ المستشرق رينو
يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة وان كانت هذه القضية لا تفتقر الى شهود

انه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحياً وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توريين Turbin أنه يوجد في اسبانية على شاطئ البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وان المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أوربة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في افريقية كان يعبد صنما اسمه ترفاغنت Tervagant وانه عندما كان يحصل على مراده كان يغطي خدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان في قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلآ لآلهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وان المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة (١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحياناً إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور في أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

(١) بمثل هذه الخرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام في القرون الوسطى وخدم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الشكالى نسمع منها وتقرأ كل يوم بل كل ساعة وقد نقلنا عن السيو درمنغهم الافرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغهم نفسه عليها التكثير ولكن رجال الكنائس لا يزالون الى يوم الناس هذا ينشثون أبناء ملهم في مثل هذه الترهات البسباس ويقبلون هم حقائق الاسلام عمداً تنفيراً لهم منه كما فعل سلفهم في القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية السماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمديّة Mohamarie فانظر الى غرابة تصاريف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الغزنوى عند ما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصر على كسره ، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهباً فأبى الا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام^(١) . وليست هذه الحادثة نذرة في بابها ، فتأمل في كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجد من أمثالها كثيراً ماذا كان السبب ياترى في ذهاب آباءنا في الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغنت وابولين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورماندين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه في هذه الكتب التي تهتم المسلمين بالوثنية وتزعم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما السائدين في هذه الفتوحات الاسلامية في أوربة ، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم . وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين .

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات ، فهي متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالمسلمون الذين كانوا يقدرون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء في القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالمسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه في سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسة ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويفوصون في الزرد وطلالما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها في ذلك الوقت ، وتركت عساكرهم العمام وصاروا يلبسون على رءوسهم الكمة الهندية . وكان أمراء الفرنسيس في كتلونية أهدوا الخليفة عشر أذراع سلافية ومائة سيف افرنسي ، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس افرنجي متقلدين السيوف والحراب غائصين في الحديد على رءوسهم الكم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شكتهم وأعلامهم وسروج خيولهم باوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجعون في التسلح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأروبيون (١) .

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي . وكان السبي أفضل جزء من الغنائم . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه في اعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقي يوزع على الجند . وللفارسي ضعفاً بالرجال . وكان يوجد دائماً في ساقية الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحي إذا وقع أسيراً كبلوه وإذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير

(١) جاء في الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلي : وجندهم صنفان أندلسي وبربري والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أي قرابة السلطان) أو حصى (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزعيم في القديم شبه زى أقباهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسه واتخاذ عراض الأسنة وقرايس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا الى الجواشن المختصرة والبيض المرهفة والدرق العربية والسهم اللطية والاسل العظمية . (ثم قال) : والعمائم ثقل في زى أهل هذه الحضرة الا ماشد في شيوخهم وقضاةهم وعلماهم والجند العربي منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء في نفع الطيب نقلا عن ابن سعيد في المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرقي الأندلس فان أهل غربها لاتسكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك . ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشبيهه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الاندلس الآن في يده وكثيراً ما يتزيى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم فسلحهم كسلحهم وأقبعتهم كأقبعتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيدته ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . واذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً فاذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلياء ما يقسم له حظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ، وهناك طبقة أخرى وهي طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤديوا الى سادتهم شيئاً معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبا أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه في حرث الأرض أو في حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم في الحروب وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والمملوك لاسيما في قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل في

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطاً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فاذا أداء صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبه والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالفعل لان أصل المكاتبه من المولى وهو الذي يكاتب عبده . قال ابن سيده : كاتبت العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه ، وفي التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاثبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبه أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا فهو حر ، فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاه مولاه الذي كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحروا من عندهم من الأسرى وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور واثاث^(١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالا ويذهبون الى

(١) قال الاستاذ العلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا في كتابه الذي صدر جديداً باسم « الوحي المحمدي » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قرينة ولكنهم اختلفوا في عتقه في الكفارة

ولقد رأينا أن تنقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه في كتاب « الوحي المحمدي » بشأن الرقيق في الاسلام فان الناشئة العصرية لاسيما المتخرجين في المدارس الاوربية لا يعلمون عن الرق في الاسلام ما يلزم أن يعلموه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادهم خيالا فلماذا اخترنا أن تفقههم على حكم الاسلام في قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال لله دره : كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحققر الهنود وتستنظهم ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز

فالما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وارهاقه ووضع الأحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى في السودان المصري فقد جرب الانكليز أن يجدوا للارقاء رزقاً يعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسوحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لا فتكك الأسارى ، هذا يفتك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل الا افتكك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التى اشترط فيها دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند المسلمين ولا عند أهل الحضارة ، فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو ابطاله ، بأن خيرم في أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء الأنفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه في قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا مخيرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلا شرعياً لابطال استئناف الاسترقاق في الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم فن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتي ، ولكن الآية ليست نصاً فى الحصر ولا صريحة فى النهى عن الاصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهاد أولى الأمر ، إذا وجدوا المصلحة فى ابقائه أبقوه . وإذا وجدوا المصلحة فى ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين - أى المن على الأسرى والفداء بهم - فى حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد ، كبعض قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكلفهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية فى تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الاقل . وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق ، قولاً وعملاً ، فى غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل فى كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيلية الذى ذهب في سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم فى البحر هاجمهم قرصان

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أثنوهم وظهروا عليهم . فلم منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزية بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية ماسرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع :

النوع الأولى من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل :

١ - الحرية فى الاسلام هى الأصل فى الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطى) : يا عمرو منذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكاف اثباته

٢ - ان الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشرروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفى حديث الثلاثة الذى لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أى جعله كالعبد فى استخدامه كرهاً وأنكر عتقه أو كتبه وهو فى سنن أبى داود وابن ماجه

٣ - شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكة بما يدفعه ولو أقساطا . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبة ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر بإعانة المالك لمكاتبة على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة وندب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين فى الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبة والأمر بالإعانة عليها . والأكثر على أن الأول للندب والثانى للوجوب . وفى صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى للملوكه) مالا أن أكتبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعيًا حثيثاً ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسيلىة كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطىء أرض مرسيلىة حتى مات دنفاً .

أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ان سيرين سأل أنساً المكاتبه - وكان كثير المال - فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالدره وتلا (فكاتبوهم أن علمت فيهم خيراً) فكاتبه

٤ - اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

٥ - ان من اعتق حصه له في عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصه فيه فله أحكام . وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، منها حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلصه عليه في ماله ان كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركاله في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ - من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام أحمد أن زنباعاً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجذع أنفه وجبه فشكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الحصيان . المماليك فيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدي رآنى أقبل جارية له فجب مذا كبرى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مثل بعبده عتق عليه »

٧ - إزاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذى عن سويد بن مقرن قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبنى مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فكان يشتغلن في قصور الأمراء وحرَم الأغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن ، وإذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بثمن غال أو يتزوج بها مالِكها وكثيراً ما كن يرسلن

مادامت الحاجة واطلاقتها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا مني اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيئته ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار

٨ - التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبدته أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتي اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ - عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، ففي حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة

١٠ - ان من ملك أحداً من أولى القرية عتق عليه وأعم مافيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً : من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام أحدها واجب حتماً على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل زوجته في أمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لمبيجية » ابنة أود دوق
اكتانية التي صارت الى الخليفة في دمشق. واذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة
وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من
الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضى
بأن يعترف بهم فانهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت
سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماماً ويقال لها عندهم أم
ولد. وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللائي يقال لهن أم ولد .
وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعدا واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن
أم ولد . أما اذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فانهم يبقون
هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل الغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة
(في الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه . ومن المعلوم ان
زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئاة الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام
الاسلام فيها وحدها لامكن تحرير الرقيق في دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى . قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في
العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة .
ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل اعتق امرءاً مسلماً استنقذ
الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله أي العمل أفضل قال :
إيمان بالله وجهاد في سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها .
ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري : أيما رجل كانت له جارية أديبها فأحسن تأديبها وعلمها
فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في
العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبي صلى
الله عليه وسلم عن قول السيد « عبيدي أو أمتي » وأمره أن يقول « فتاى وفتاى وغلامي » وأمر
بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى ببعض اختصار ، ومنه تفهم معالى الشرع
الاسلامى وما فيه من المبادئ الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة ،

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ،
بالحادثة الآتية :

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طولوزة ، أسيراً
في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في
حراث الأرض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانه لا يحسن غير القتال ،
فجعلوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى أن حضر حرب
قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره. ولما كان
« شنجو » كونت قشتالة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ماشاهده من إقدام
هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن
مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً
بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي اوربة ،
فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبديهي أن يستعبد فيها الأسرى من المسلمين . ولم
يكن فرق بين الأسرى في الاسلام والأسرى في بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق في
الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة في اوربة فان
طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان
المسلمون يبدلون أيضاً الأموال في افتكك أسراهم ، فمنهم من يفكه أهله ، ومنهم
من يفكه أصحابه ، ومنهم من يفكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات
لفداء الأسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في
الاسلام وقد سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) سائل عما يجب أن يعمل له لينال أفضل الثواب
وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأفياء على
الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلاً بعضها
عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوضاه النبي بتحريم الرقاب . وقد روى النويرى ولوذريق شيميناس أنه في زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آدل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم إلى هذه المدن فيفدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم في خدمة مالكه . وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث . وكان يحق للمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفرؤا . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصارى بل هناك ماهو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وإنما كان للمالك أن يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من أوربة في نواحي القرن الثاني عشر إلا أنه بقي جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثاني عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة . تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا اذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون في المزارع من أملاك الممولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا في فرنسة بعد سقوطهم في معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم في أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسا ، منها الحروب الصليبية في الشرق ، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمي الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو في كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتياً أيضاً بطريق التجارة . ومما لانزع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسا عادة متبعة دهرأ طويلا ، وفي سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بعبده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميوفيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيه . وكانوا من الذكور والاناث. ذكر هذا المسيو بوش في تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه^(١) René لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة في طرا كونية في اسبانية المنعقد سنة ١٢٣٩ من جملتها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يفضون للسماح بزواج الارقاء في فرنسا بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها

لقد مر بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لا يقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء المتعمدين اذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول في النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمررون على ارهاقهم بأشد ما يمكن . ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كوتنا على بروفنس توفي

منشوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس في ميرنده ،
لكونه عذب رجلاً مسلماً غنياً كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير
حقيقي وضبط له أملاكه وحرم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك ،
وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرابين من
اليهود أدخلوا المسلمين أيضاً في دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق في
التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم
من حق الدفن في المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطون أشغالهم في الأعياد
المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيراً (١) وهذه نتيجة

(١) في فرنسة ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة
السرارين . أي المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفي نفس سويسرة
عائلات ملقبة بالسرارين ، في جنيف وفي بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربي في جنيف
العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبي زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit
وأصله عربي من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ،
فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع
من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة
والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوطن في انكثارة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت
له عندم المكانة العليا وربما استفتوه في عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال
ده جنيف احدي المرار أن فولتير استفتاه في مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولتير صاحب له قاصداً الى
جنيف ، فسأله فولتير : ماشغلك في تلك البلدة ؟ وكان فولتير ساكناً في ضواحي جنيف كمالينخي
بقرية فرناي . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تتجمع بصاحبنا
العربي . وأما جان جاك روسو فبينه وبين أبي زيد مراسلات مجموعة في كتاب . وكان هذا العلامة
العربي زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها ،
واقصر على وظيفة قيم لحزارة السكتب العمومية . وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع
أبي زيد . وكان ساف أبو زيد هذا أطباء في طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبي زيد
العربي الجنيني منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما
نعود الى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته

طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيين الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسي المسلمين للندارى من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل في الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والحراجية ، فانهم قد استقروا بعد غزواتهم الاولى في بروفنس ودوفيني وبيمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقي لم يكن إلا في بعض المعاقل الحصينة وفي ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأسرها . نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التي كانت تجاور حصن فركسينت فقد كانت دائماً عرضة لعبث عصاباتهم . وفي أوائل فتحهم لجنوبي فرنسة أيام شارل مارتل وابنه بين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط في اللانغدوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وانما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكانهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكرنا يزيدور الباجي المؤرخ المسيحي الذي عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع في يدنا منشور من الوالى المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلي : يكون على مسيحي قويمرة كونت يلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وان أهان مسيحي مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وان سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى الزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وان كانت المرأة محصناً فان المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة (١) وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوربان Lorban وطبع في اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية في فرنسا فليست عندنا عنها معلومات شافية للغيل ، وكل ما نعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلاً بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم وبيعهم مع القسيسين والوفية الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين في أربونة وما جاورها من فرنسا مثلاً متعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعهم بها في قرطبة والمدن التي في قلب المملكة . نعم ان المسلمين في قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للرهبان والتي للراهبات على السواء ، وتساحوا معهم في أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا في افريقية ولا في آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس (٢) في مواعيد صلاتهم أما في أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما في قرطبة ، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب في ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

(١) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عايم بأموور المسلمين أن ينبه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أي ان هذا الجزاء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو في حاشية هذه الجملة أن المسيحيين في جبل لبنان هم وحدهم الذين في الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم . أما في شمالي اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد . ففي أراغون مثلاً ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال البيرانة ولم تعد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عند ما أجلى المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها ، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات في المدن الواقعة في الثغور . وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتبوا بالقديم منها ، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وأن بنوا شيئاً جديداً منها فلا يكون الا مكان القديم . وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضاً للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول في الاسلام . وقد تبين من الأمر المتعلق بنصاري قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة لبيت المال ، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصاري بالحسنى ، كما أن النصاري كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراجل البنغضاء كانت تغلي أحياناً بين الفريقين ، وأنه كان محظوراً على المسيحيين اقامة شعائر دينهم علناً بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمازوا ونفروا وربما قذفوا وشتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضاً كانوا اذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسموا اشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس اولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمع (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان

هو البادىء بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء في اسبانية أو في جنوبي
فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والجل منتشراً وقد وزع السمع قسماً
من الأراضي المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد
أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء ، وقدم السمع
بقية الأراضي الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضي المسلمين هو عشر
المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان
المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهى إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من
المسيحيين فى مقابلة محافظتهم على دماءهم وأموالهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من
أسلم من المسيحيين فكان معفى من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسماً على
البضائع والسلع ، فالمسلم كان يؤدي اثنين ونصفاً فى المئة ، والمسيحي كان يؤدي خمسة
فى المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق فى اعانة الفقراء وافتكاك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين
أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة . أما المسيحيون الذين
لم يكونوا خاضعين للإسلام فكانوا يسمونهم أعلاجاً واحداً عالج ، وكانوا يقولون
عجمى لكل من ليس بعربى ، ويسمون مشركاً كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم
لأن المسلمين لا يرون فى الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للإنسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكلمون الأمم التى تغلبوا عليها ؟
فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من
الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون فى تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلاً
مسيحياً لأوائل أيام الفتح الإسلامى أتقن العربية غير هارتموت Hertnote رئيس دير
سانغال الذى كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن
التاسع . ولم يبدأ أبؤنا بتعلم العربية إلا فى أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى
عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية
حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقرأون العربية على أهلها . وفى

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Gluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .
على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب الى فرنسا كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهياً أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضف الى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا في أرض فرنسا فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين رغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلفون الى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام ، ومن جملة هؤلاء الانكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع منازل بهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا في أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويجعلونهم جنوداً ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلالاً . وكانوا في أي مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم . تأمل في كيفية حلولهم بجزيرة اقريطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفاً من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول في اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالعمارة ، وأحرق السفن التي جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نراسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : اننى أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفس

وقد ذكر المؤرخ ليو تبرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن المسكر الاسلامى يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لا طويلاً ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتى ويرجع مرتين أو ثلاثاً في النهار . فسأل وكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقيل له مسافة يوم وليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة والحال هي هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النويرى . والحقيقة أن المسلمين لم يعولوا على البقاء في صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسا على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً ففي أربونة مثلاً حيث بقي العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المهدودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسا كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدينة ، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسا والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم . ولسنا الآن في صدد المدينة الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاده العرب من الجسور والمعارب وشقوه من الأنهر والجداول لرى الأراضى ، وما بنوه من القصور المنيفة الشاخحة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وبيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطوليماووس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها إلى ما تلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لا مرأى فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شامجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء إلى قرطبة ملتمساً الاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع اسبانية ،

طلباً للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبلغاً خيلاً لعامة فرنسة اذ ذلك أنه
ساحر (١)

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسة وتدرجت الى جبال
الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثروا
مدنية ، وإنما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في النهب وغرام بالكسب .
فالنهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثاني عشر أى منذ زحف أهل الغرب
لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام في الصراع وجهاً لوجه ، فوقع
الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيين والانكليز والالمان من رقبتهم
ونفضوا عنهم غبار الحمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة في المدينة الاسلامية . وكان
علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليوناني غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) في موضوع آثار العرب في فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور
دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في مدينة مونبيليه في جنوبي فرنسة الذي ألقى في فضل
العرب على جامعة مونبيليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين
وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة في حريدة الاهرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات
العرب لمهد الخلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدنيتهم حيثما ذهبوا واينما حلوا ، وقال :
ان مدينة العرب لم تنحصر في فن البناء ونشر الزخرف العربي وتشديد الجوامع فقط بل كانت تتناول
الكثير من العلوم والمعارف التي هي أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمي النبات والطب ،
وذكر أنه الى العرب يعود الفضل في تعريف الغرب بالمدينة اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا
بيلدة ماجلون ، صاحبة مونبيليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل
وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا في اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء
منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطبيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا
الطب العربي مثل صموئيل بن طيبون وناثان بن زكريا وأسمائها منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل
كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة
مونبيليه على أساتيد من العرب وقال : ان ملك نابار عندما مرض بصدره التجأ الى أطباء العرب ، وقال :
انه يوجد في متحف الجامعة بعض آثار وجدت في ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والاشعار العربية
وكنت سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوقي أمير الشعراء الذي درس علم الحقوق في جامعة
مونبيليه هذا الخبر بعينه رواه لي لأول تعارفنا في باريس سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمنون اسبانية لأجل ترجمة التأليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فركسنت ، فان الأثر الذي أثروه هناك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياها بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس .

وقد ذكروا أن حصوناً كثيرة على قنن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبه الساحل الافرنسي والاطالي ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو الفونس دهنيس Denys في كتابه الزهرة البديعة في مقاطعة الفار . وكذلك جاء في كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التي شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولي ، أمير الأندلس في جنوبي فرنسة ، في نواحي سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجي أن السمع ابن مالك الخولاني الذي تولى قبل عقبة امارة الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطاً لانفسهم ومراقبة لاعداهم (١) . هذا ومما وجد من آثار العرب في فرنسة الاطالس الحيرية والاسقاط

(١) تقول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئاً من هذه الابراج في سواحلهم ولكن بما لا مشاحة فيه أن الابراج التي في جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران في الابراج ايذاناً بالحرب وتمهداً للصريح إنما هي عادة في الغالب عربية . وكان العرب في أوائل الفتح الاسلامي نشروا هذا النمط من الابراج النارية من

الثينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الغواة؛ والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الانفس. ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير في طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهداً على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، في مرسية وبلنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استثمار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفون به المراكب . ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيين ، بل يقولون قطران Quitran (١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالحياد العراب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد ، فبقى جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآن يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطلع عليه الانسان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، في الليلة الواحدة .

ولما سرت من مالقة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها الى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات ، فكنت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجاً مخروطي الشكل شاهقاً في الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابهل والارز ، وهو يلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيين Quitran

الشاب بين فتاتين ، وفي أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطأ ، بازاء الراقصات خطأ ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون . وهناك رقص عسكري يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفاً يحاول أن يصيب به

الآخر أشبه بالأقران فى ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجروا أو يدافعوا

أما وجود أناس فى فرنسة نقدر أن نحكم عليهم حكماً باتاً بأنهم من أصل عربى فغير

محقق . قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون ، بين ماصون وليون ، لاسياً على

الضفة الشمالية انهم من بقايا شردمة من العسكر العربى انقطعت عن مجموع الجيش فى

أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظاً خاصة قد تكون باقية من

اللغة العربية ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق ، لاسياً أن تلك الألفاظ هى فى الحقيقة

مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسى القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون

لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من

سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربى . ولكن لم

يثبت شئ من هذا ، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغريبة

المنتشرة فى بريطانيا واورنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لا يخفى فى زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ،

نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضيق فليب الثالث

ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع فى جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها

على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مساهين باطنا ،

وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت فى ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع

أخيراً على طردهم من بلاده ، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا فى فرنسة الا عابري

سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بقى منهم

في فرنسا تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier في كتابه
المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الامم الساكنة في جنوبي أوربة ، فقد

(١) عند ما اشتد التضييق الى الدرجة القصوى على بقايا مسلمي الأندلس ، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً
من المال ، واستعباداً للذكور والاناث ، وتعذيباً بمختلف الأشكال ، بحجة أنهم وان كانوا قد
تنصروا ظاهراً فلا يرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سراً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم
خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية
الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبث الوفد الى الصدر الأعظم كل ما يعاينه المسلمون من العذاب
تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين
ألفاً خرجوا الى فرنسا ، وهم يلتمسون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسا وملك اسبانية
في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل الى بلاد الاسلام . فعرض الصدر الأعظم ما سمعه من
الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفي الحال لبى السلطان العثماني نداءهم ، وكتب
الى ملك فرنسا هنري الرابع يرغب اليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا الى مملكته على مراكب
تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم الى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تتعهد الدولة العثمانية
بدفع كرائها .

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسا على شريطة أن يقبلوا المذهب
الكاثوليكي ، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهيمه عدم اغضابه ، أجاب طلبه
وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا
بالغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى
القسطنطينية . وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسا انتهى الأمر بأن سلاتها صارت الى النصرانية واندمجت
في الفرنسيين . أما الذين كانوا لا يزالون في اسبانية ، فبقي « فليب الثالث » يمنع خروجهم منها ،
إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على ارادة السلطان العثماني ، فحسب لتدخل الدولة
العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظاماء مملكته ، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك
المملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم مهما وقع ووعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ،
تخلصاً من غوائل بقائهم في اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية
بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم في ظاهر الأمر ، ليخبر
الحكومة الاسبانية بشيء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون
مسلمين ، وان أظهروا التنصر ، وأنه يكون من الحزم اجلاؤهم . أجمعهم عن اسبانية حتى لاتعرض هذه
المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لاتعلم عاقبتها . فأخرجهم جميعاً على مراكب الحكومة

قيل فيه انه وقع في لغة الاوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسا وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل في اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسة ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيين في يوم من الايام . وبالاجمال فتأثير العرب في فرنسا كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل نقدر أن نقول انه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة رومانى كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أى العرب كل ما يرونه كبيرا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمنديين والمجار الا تذكارات في بطون التواريخ ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسة لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار ، واستمر وجودهم في البلاد الى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمنديين في مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة مالا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعموه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وانبثوا في الريف ، وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانباً من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية
وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمي الأندلس في الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامي » واعتمدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبدالرقيق الأندلسي الذي روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فمن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للغيل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامي الطبعة الجديدة . ولكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءاً بتمامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « الموريسك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبه الموريسك هؤلاء ، حتى انفق عقابهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدينة العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في افريقية أو في آسية في وجه الصليبيين ، قدأضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق اللعان الذي كان من قبل . وكل هذا لم يكن كافياً في تفسير مكانة العرب المكيئة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمرء والنبلاء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كان يعجب بتلك القصص وهاتيئك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاعف كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجماهير التي تترنج لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم . ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترغمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسماً لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي يبارزه أمير فرنسي أو بطل فرنسي وبعد أن يشتد البراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهي بالبداهة بتغلب البطل الافرنسي على البطل العربي

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا والاقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخي الاسبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده . فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد في المسيحيين إذ

ذاك كفوًا لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدد بها مجد العالم الغربي . وقد بقيت هذه الأقاويص هي المعول عليها في الاندية والجامع ، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمحافل الى عهد غير بعيد . ولم يدخل التمحيص التاريخي عندنا الا منذ مائة وخمسين سنة ، اذا أخذ الناس يبنذون ما هو من عمل الخيال الى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختام القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والنصور بن أبي عامر ، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا ، لوجدوا اختلافًا كثيرًا في بيئتي المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكائنة العليا التي جعلها القصاص والزجالون من آباءنا لاعمالمهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بعمالي الامور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشعور النبيل الذي كان يحتاج عند من نسميهم البرابرة من آباءنا والذي لا يزال يتلاشى يوماً فيوماً .
انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

في أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كلر

Der einfall der Sarazenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahremderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellschaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » في زوريخ ، في سنة ١٨٥٦
وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن
الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا
عليه في هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته في مجلة المنار لصاحبها
الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اننا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية
في كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا في المظان التي ليس فيها طائل
قال فرديناند كلر في كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التي لا يدرك سرها ، قد
جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ،
قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس ترويز St Tropez في بروفانس
Provence . فزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم في جوف
الليل فتسللوا الى قرية « ترويز » وفتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية .
ثم اتخذوا معقلاً الجبل المسمى موروس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يمرون فيه . وهذا المكان يسمى فرا كسينيتوم Fraxinétum ^(١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتسبة مشبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سرابا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكثهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه ، وقال ان أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليلتحقوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجته

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد ومن توالى النجدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين في سربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصبية اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغنم كثيرة

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر ^(٢) عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فرا كسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقي مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويعثون منها شراذم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتموا

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضاً : Garde - Frainet في خليج سان ترويز

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية

جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستن زاكين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها ، برعب الناس منهم ، وبعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار ، لأجل الغنائم ، فاذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعا صافصفا كأن لم تكن بالامس

والذي يظهر جلياً من روايات مؤرخي ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافيا لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترمى اليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تكثر عليها ، وتعود بها الى معقلها في جبل فراكسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فراكسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته (١)

وأما السؤال عن الوقت الذي اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا في أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر . فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalesه الذي على مقربة من «سوزا» Susa بجزاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦ . فمذ تلك السنة كانوا في «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و «شيمله» Cimella حول «نيسه» nizza

(١) على أن رينو ينقل ان اوتون امبراطور المانية كان أرسل وفداً الى الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة من جملة مطالبه كف عادية العرب الذين نزلوا في فراكسينيت وتقدموا الى جبال الالب . وقد تقدم ذلك في ترجمة تاريخ رينو

يجولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها . فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما فى الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شىء وأجرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان فى السن قد بقيا فى الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوها (١)

وفى ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » Po و « الرون » مجالا للغارات والعيث، فالبييمون وبروفانس وبلاد «دوفيني» Dauphiné و «مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتيزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار . وقد حدث مدونو الوقائع اليومية فى ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابري السبيل، ويسلبونهم ما معهم واذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢) . وكان أكبر القوم لاسيا الرؤساء الروحيون الذين يؤمنون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب ما يحملون

(١) هذه الرواية جاءت فى كتاب رينو كما تقدم

(٢) لانريد أن ننفي عن هذه الفئة من مغيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جلمهم أو كلمهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلا على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون محمداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الخرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها فكيف تقدر بعد هذا أن تتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا إذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفي عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوثام بين أهالي البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء . وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابليين بالسهام والحجارة ، ومن القائهم في الأودية والمهاوى بحيث أنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة انكليزية أخرى وفتكوا بها . ثم انهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل أن يقعوا في أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أما كن هذه الوقائع فلا نقدر أن نحكم في أي محل حصلت ، أفي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسة ؟

وإذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار^(١) لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت أن كنوت «Knut» ملك انكلترا والدانمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف «Rudolf» الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمون رومة^(٢)

في أي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس «Mont Jovis» وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟ هذا شيء لا نقدر أن نحدده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، إلا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذى يظهر من كلام رينو^(٣) أنه يعميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتى أنها جرت قبل هذا التاريخ^(٤) . ومن المحقق أن العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادى الرون الخصب ، حيث كان مبنياً دير اغاونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان «موريتيوس Mauritus» وأصحابه ، والذى كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

(١) St - Bernard وهو من أشهر معاير جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التى يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الغويلفيين وهم شعب ألماني كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسي رينو Reinaud الذي ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى والبيامون وسويسرة» المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على مملكة البورغوند تأليف فون غينغيس Von Gingins

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg في أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك بورغوند في دفنها في أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طعمة للنار (١)

وبما جاء في تاريخ « فلودوارد » أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغالين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور

وقد ذكر مؤرخو الفرنسيين كتابا محفوظا موجه من راهب من دير سان « موريس » St - Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسا لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسا من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلتمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفي ذلك الوقت كانت العصاة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى « حياة القديس اولريك » وهذا هو اسم « اولريك » او « اولريخ » باللاتيني Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه « فلودوارد »

(٢) الفرنسيين يقولون له كلوفيس والالمان كلودفيغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له

الألب المعروفة بالألب البونينية Pôninische قد بدأت تشالغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد»^(١) كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معابر جبال الألب الشرقية . فاذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور Chur» الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

وما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» الى وادي «الرين» كان المسلمون قد اكتسجوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الالمانية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فالس Wallis» قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الالمانية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعابر الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعني به احتلالهم جبال الألب الالمانية ، وانما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحتها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليكون ذا بال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من البيامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشرط الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة ؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بساتهم والرعب الذي وقع في قلوب الناس منهم ،

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيس يقولون Vaud وهي البلاد التي قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب^(١). ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزين « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وأبواب معبر الألب الراهية . وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديسنتيس « Dissentis » الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا دبرها قد اجتاحوا أيضاً دير « ديسنتيس »

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد اتهم من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الامبراطور في كويد لنبورغ Quedlinburg في شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « Walto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاءه فعمد إلى الاسقف المذكور بادارة كنيستين احدها كنيسة « بلودنس » Pludenz في وادي « دروس » Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس »

وظاهر أن العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

(١) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » ura وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذاك إلا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراجية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذي يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن في قولنا أنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعى أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكائهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع في كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كاه قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال ياجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضائق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار المملوءة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتي عشرة سنة طراً حادث فجائي وافق مصلحتهم ، ومكئهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الفرّة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التي بجذائها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيش العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين في معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولأجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسى « سان ترويز » بينما كان الجيش البرى يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطى يصل الى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتصمين بجبل « موروس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور « برنغار » المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسعى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فانسحب من لومبارديا بغتة والتجأ الى هرمان أمير الشفاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فتلقاه الأمير هرمان برأ وترحيباً ، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلم عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلس ممالكه من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن المداوة الى المسالمة ، وبعث اليهم في جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الالب بجميشه ^(١) فاشتراط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نس روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيحهم فيها جميع معاير جبال الالب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطالية

يعترف لهم بحق احتلالهم معاير الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحاً به في المعاهدة . فالسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معاير الالب المذكورة ، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعاير ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابلين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيراً ثم اضطر أن يفك رقبتهم بمبلغ عظيم من الذهب (١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد « فاتلانند (٢) » الى « أفانشس » Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال « جورا » Jura وكانوا حيث مروا يعيشون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من « كور (٣) » الى بحيرة « كونستانس (٤) » في وادي الرين هائلة جداً ، فقد وجد في خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein تجاه الأسقف « هارتبرت » مطران « كور » في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافاً في « الازناس » وأخرى في « كونيغسكهايم » Konigsheim وكنيسة « موخنهايم » Mauchenheim وما يتبعها

- (١) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها
- (٢) هي مقاطعة « فو » Vaud الحاضرة التي قاعدتها لوزان
- (٣) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur
- (٤) الالمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة « بون » Boden See

وقد وجدت كتابة ثالثة فى « دورنبورغ » Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥
ما لها أن الامبراطور « أوتو » كان منصرفا من ايطالية فشهد بعينه آثار عيث العرب
وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة « برونو » أنعم على دير كور بتلك التعويضات .
وقيل ان جزالة هذا العطاء الذى أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل
عودته موقفا من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التى كانت تخصه
فى « زيرس » وأمر باعفاء سفن الأساقفة فى بحيرة « فالنزي » من المكوس . وقد
أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه اياهم كنيسة « ننتسينغن » فى وادى « دروس »
مع العقارات التابعة لها ، وانعامه بجمالية الأملاك التى كانت تخصه فى كور ، وبمكوسها
التي كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم فى سنة ٩٥٨ كنائس عدة
مثل « سان لورنز » و « سان هيلاريوس » و « سان مرتينوس » وكنيسة
« كاربوفوروس » ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير « ديستيس »
فى سنة ٩٦٥ الدار التى كانت له فى « فافيكون » على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور
رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع فى « فينشغاو » و « انغادين Engadin »

وفى ذلك الوقت أوصل العرب غاراتهم الى « زارغانس Sargans » و « توغنبورغ
Togenburg » و « ابنسيل Appenzeli » وصلوا على أهالى تلك الجبال ، فقتلوا
الرجال ونهبوا المواشى وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب « ايكهارد (١) »
الذى حرر تاريخ دير « سانت غالن » ما يلى .

« كان العرب يبعدون جدا مغارهم فى جبال الألب لاسيما فى زمان « فالتو »
ويفتكون بأهلها بجرأة غريبة ، حتى انهم فى ذات يوم رشقوا بالنبال من أعلى جبل
واقع شرقى الدير جماعة كانوا قائمين بطواف دينى يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

« فالتو (١) » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكائهم ، وسلحهم بالحراب والمناجل والفؤوس . وفي الليلة الثانية كبسهم بياتا ، فقتل منهم وأسر بعضهم (٢) وفر الباقون . ولم يقدروا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوغل في الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير في الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعاً . وقال « اكهارد » ان الرزيثة التي رزىء بها الدير من غيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلزم وصفها كتاباً (٣)

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتام كم كانت مدة اقامة العرب بشرقي سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التي وجدت في دير « كور » ودير « سان غالن » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تتأخر عن العقد السادس من القرن العاشر

وفي سنة ٩٥٤ نفسها ، وهي التي وصل فيها العرب الى سان غالن ، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كونراد ملك بورغوندا أو البرجان ، ببسالته الشخصية وبخدعة حربية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب (٤) وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معاير الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول :

(١) Walto كان رئيساً للدير في سنة ٩٥٤

(٢) سقت هذه الرواية في كتاب رينو

(٣) وقد أيد كيلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتيب تاريخ مقاطعة « سان غالن » وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضاً في كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فما لا شك فيه أن قسماً من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه ، هل هو في « فاله » أو في « سافواي » أم في غيرها ، فان المؤرخين لم يمينوه . وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجر من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجأتهما الى البرج الذي كانت بنته هي في « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « فو » (١) .

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ العالمية فقط بل جاءت في سيرة بعض القديسين . وبالأجمال قد كانت اشتدت وطأتهم ، وعم الرعب منهم ، الى أن أصبح الجميع في حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا الرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلوني « Cluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » الى بورغوند ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي :

عبر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قن جبال الألب ، ووصلوا الى قرية واقعة الى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاري « Pons Ursarii » وتسمى اليوم « أورزير » (٢) .

(١) لوزان وتوابها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب الى أن القديس مايولوس سار من اليامون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وانه قد جرت معه هذه الحادثة في أعلى وادي « دراك » بقرب قرية « بون دوزير » وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين « غاب » و « امبرون » وأما المؤرخ كيلر فانه يخطئه رينو في هذا الرأي ويقول انه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايولوس في

وقد كان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملا بأن يكونوا بجميته في مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من مبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طمئن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس واتقى الطعنة بكفه ، فنفذت الطعنة منها ، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته . وأما الخادم ففر ناجيا . ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلا جالسا على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتما بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فازداد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجليه بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدي العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف رومة بالأبواب الخيرية وفي يده المبخرة . ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحما وخبزاً يابسا ، فأجابهم مايولوس أنه ليس يأكل من هذا الطعام الذي لم يألفه حينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خبزا نظيفا طريا ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وغادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائما معه في أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أخاهم على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد

الوقت الذي ذكره ، فهي متأخرة عن الوقت الذي ظنه رينو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ ورينو يحسب انها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم ان العصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سأله أهو من ذوى اليسار ، أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأصعبه بكتاب الى دير « كلونى » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان في دير كلونى ، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، انى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بانقاذى وانقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب فى مجتمع الرهبان ، وكانوا يحبونه جميعاً ويحترمون احتراماً زائداً ، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا الى جمع المال لساعتهم ، ولم يضمنوا بشيء ولا ادخروا منفساً حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلاً عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم المعين كان أحد الرهبان البجطين فى قرية « أورزير » ومعه جميع المال المطلوب . فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم الى السماء كما كان رأى القديس فى المنام

ومما يهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايولوس الف دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معار الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطمعوه فى التقدم فيقطع أعالي الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، حينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئاً ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار ،
وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفي ذلك الوقت كان في جوار
سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له « بونو » أو « بوفو » (Bobo أو Beuoo)
مشهور بالحمية والتجدة ، عظيم الهم في تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين
بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوحة لحصن العرب ، ليتمكنوا
من استئصالهم . فبوبو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودا من القديسين هو الذي بدأ
بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه »
Dauphiné ثم انهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد
أكناد^(١) بروفانس هاجمهم برجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه
السفلى وامارة نيقه^(٢) وذلك في قلعتهم فراكسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد
استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماة العرب الى الغاب الذي بقربها وطلب
آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحياهم
الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فراكسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم
كانوا في فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيما بينهم .

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند
على أكناد

(٢) nice بالفرنسية و nizza بالامانية والاطالئة

آثار كتابته

في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(١)

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابة التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(٢) في « فاله » Valais فقد كان هذا الوادي مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم في أثناء مقامهم بجبال الألب . وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكاراتهم المخيف لم يكن اجحى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فانها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أى زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذي كان ولدا طبيعيا للملك البورغوني رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة^(٣) ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذي كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكلمات اكنها متفقة في المعنى^(٤) وهي لاتينية معناها :

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خاط رينو بين كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني

وسيون

(٣) من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية ^(١) انتشرت في وادي الرون وألقت الرعب في البلاد بالنار
والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البينية ^(٢) »
وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

(١) الافرنج في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب ببناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان الحجار
كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالاسماعيلية
(٢) الالب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهي جنوبي الدانوب . وهي تنقسم الى ثلاثة
أقسام : الالب الغربية وهي الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق « تاندا » والبحرية
الممتدة من تاندا الى جبل « فيزو » والساحلية الممتدة من جبل فيزو الى جبل « سنيس » والفراشية
الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض
والالب الوسطى ، وهي الجبال الهلقتية ، أى السويسرية والبينية ، الممتدة من الجبل الأبيض الى
جبل السملون ، والليونثية الممتدة من السملون الى بحيرة كوم ، والراتية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد
النمسة والالب الشرقية ، وهي الجبال الالغافية والبافاروية والستيرية في النمسة والكادورية والكارنية
واليولية بين النمسة وايطالية ، والدينارية في دالماسية
واعلى قنة في الالب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهي أعلى قنة في اوربة ، وبعدها
تأتى قنن روز وسرفين وبلفو وفيزو وجنيف وسملون وسان غوتار الخ . ويمرون من فرنسا
الى ايطالية من تاندا والارجنتير وجبل سنيس وسان برنار السفير الخ . ويمرون من سويسرة الى
ايطالية من سان برنار الكبير وسملون وسان غوتاروسان برناردينو والبولا وبرنينا الخ . وقد
اخرقت الالب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق نفق
السملون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن
طريق نفق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « فاله » ووجدوا ألفاظا كثيرة لم يعلموا لها أصيلا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر « الفاله » الى « البيامون » حيث مر العرب في القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية

« الماهل » في وادى زاسى (١)

هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعالي وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر في وادى « فوركا » ويسمى معبر « اترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السمبلون (٢) . ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماهل » بالتشديد محرفاً عن « محل (٣) »

(١) Almagell فى الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وايطالية

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفاً عن محل وإنما الماهل هو الماء فى أصل الجبل أو فى الوادى أو مستنقع الماء ، وهو معروف كثيراً وكانوا فى مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرقى صاحب كتاب « أخبار مكة » واخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالعلاة . وقال صاحب القاموس : الماهل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفى حديث أبي واقد : كنا نتماقل فى ماجل أو صهرريج ، قال ابن الأثير الماهل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التفاوض فى الماء

« على العين^(١) » في وادي زاس

في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقي نهر « فيسب » Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هي في غاية المطابقة

« العين » في وادي زاس

ان الجبل الألى الشرقى الذى هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » في وادي زاس

ان أسماء القسم الغربى من وادي زاس لم تكن معروفة المعانى ، الا أن الأستاذ « هيتزيج^(٢) » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أى الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هناك عدة قنن صغيرة تعلوها قنة كبيرة هي بينها أشبه بلبؤة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أم الجنوب ، ولأجل تأييد هذا الرأى يستشهد بكون القمم التى الى الشرق من السمبلون تسمى بجبل الأسود^(٣) وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربى لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتداء الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو^(٤) »

(١) Alalain

(٢) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبؤة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها

المشابل جمع مشبول وهو المكان الذى فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربى وهو اسم يجده الانسان كثيراً في جنوبى اوزبة حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذي الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت»
والثاني الجبل الذي فيه معبر «مورو» الذي يؤدي من حصن العرب هذا الى
« ما كونيغا » macugna في البيامون

ويوجد أيضا قمة يقال لها « قمة المورو »^(١) الى الجنوب من « بانيو » في وادي
« انزه »^(٢) ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين « اترونا » ووادي « انزه » الى الشمال
من « بريبنونة » Prebenone

وكذلك الى الشرق من معبرسان برنار قمة اسمها جبل مورو
فانغلهارد Engelhard المؤرخ يرى في كثرة هذه الأسماء بالجهة الايطالية من جبال
الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصناعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما
أثروا في هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الأب
شيئا من المعادل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التي كانت
قبل مجيئهم قائمة عند مضائق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم
حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغي أن تكون الحوادث التي جاءت
بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالي ذكراهم بالمره

وأما في سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما في مقاطعة لوزان ، فانك تجد
« برج العرب La tour Des Sarrazins فوق « شيزاس » عند « فيفاي »^(٣) »

(١) وفي الأصل Pizzo del moro

(٢) وفي الأصل الألماني Anzathale ومعناه « وادي انزه » ويجوز ان تكون « وادي عنزة »

(٣) Vevey وهي بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليان بين لوزان

ودهليز العرب وغار الغرب بقرب « لوسنس » Lucens
وفي « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب (١) جاء
ذكره في تاريخ سويسرة لمولر Muller في الجزء الاول صفحة ٢٥١
وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « سارازين » المراد بهم العرب توجد في مدينة
« بازل (٢) » ونواحيها حسبما ذكر الأب « سيراسة » Serasset في تاريخه
« المباحث التاريخية والآثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » في الجزء الثاني صفحة
١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه المصائب الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس
تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئاً
عن توغل العرب في بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد
سكنت فقد قامت الأخبار المعنونة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا
بإضافتها الى أسماء عربية ، تشعر بوقوع هذه الغارة المخيفة . فعلى نصف مرحلة من
« دفلية » Develier على الجبل ، والى الشمال الغربي منه ، يوجد على مقربة من الطريق
السلطاني الروماني فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « السارازين » وأهالي
هذه النواحي يروون بالتواتر ، نقلاً عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتله
« السارازين » أي العرب ، وانهم كانوا يذهبون ويوردون جملهم عند « السورن »
Sorner بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذي يطلقه الأهالي على
ذلك الطريق الروماني . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالأرقام العربية . ولما
كان لا يعرف من نقش هذا الرقم في الصخر ، وكان قديماً جداً ، فيترجح أنه قد نقشه
العرب عند ما كان لهم محرس في ذلك المحل

(١) في الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والإفرنيس يقولون « بال » وهي من أشهر مدن سويسرة
واقعة على حدود ألمانيا . وفي هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « سارازين » ومنهم اناس
في جنيف ومن هؤلاء السكولولل سرازين الذي هو من أمراء الجيش السويسري

وبقرب من « روسمزيون » Rossemaison بمحذاء جبل « شايوت » Gheibut
توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين (١).

(١) ذكر كيلر في الحاشية تقلا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرانش كوتته » من
فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية في « فرانش كوتته » كثيرة جدا
قال فعندنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور
وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلقة حديد ، وكلها منسوبة
الى السارازين أي العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين ومحل يقال له مخيم السارازين
وقرية يقال لها « ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب معهودة في بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ،
فن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجد مداود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجد اماكن مثل
ساحل السارازين ، ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك
أما بلاد فرانش كوتته فهي من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد « جورا » من سويسرة

المكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ما وجد من المسكوكات الباقية من الدور الروماني . فقبل ان ندخل في بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التي عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمي وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف احد في البداية ماهي . وقد اشترى اكثرها الماجور « شينغ » Schiegg وبعضها دخل في حيازة البرنس لويس نابوليون (١) ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن » Oken الى مجموعة العاديات في زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن » Kern والاب « ران » Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء اكاديمية بترسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هي من ضرب عمال الخلفاء على افريقية في الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على البلاد التي تركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها في زمن الخليفة الهادي وأحدثها في زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بوناپارت وهو الذي صار ملكا على هولاندة

في القيروان عاصمة افريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر^(١) وهرثمة^(٢) (ابن أعين) ويزيد^(٣) . وان قطعة واحدة هي مضروبة في زمان ادريس مؤسس الدولة الادريسية^(٤)

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة ، كاسم الامير ، ومكان الضرب وتاريخه ، وبمض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هي بالخط الكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الاسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين أنه كان عن طريق فرنسة ، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم كارلوس الأصغر ملك فرنسة (٨٤٣ - ٨٧٧) وان النورمانديين قد أتوا بها إلى فرنسة في أثناء غارتهم عليها . وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي افريقية ، في أثناء غارتهم على سواحل تلك البلاد . ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

(١) نصر بن حبيب ولاء افريقية هرون الرشيد وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في افريقية ومصر كانت ولاية نصر في العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ هـ خست سيرته وعدل في احكامه

(٢) هرثمة بن اعين ولاء الرشيد افريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر ، فسكن الناس ، وهزم الثوار وبني سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير . قال الرقيق . لما رأى هرثمة بن اعين مارأى من الخلاف في افريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب اليه هرون بالقدوم عليه فرجع الى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاء أبو جعفر المنصور افريقية سنة ١٥٥ هـ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر

حلفت يمينا غير ذى مشنوية عين امري آلى وليس باثم
لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى

(٤) دخول ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم الى المغرب كان سنة ١٧٠ هـ وكان معاصروه من الامراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الاندلس ويزيد بن حاتم في افريقية

في الروسية مما كان قد جاء به النورمانديون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زماناً طويلاً في نفس سويسرة لا يبقى محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورمانديين

وقد وجدت دفينة أخرى من المسكوكات العربية في « مودون » لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكاديمية الذين لهم مباحث جليلة عن مسكوكات سويسرة

فأحدي هذه القطع مضروبة في افريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم اسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد ، وكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو علي بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلثمائة . ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتنبورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورمانديين . أما التي وجدت في مودون فإنه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة . ومن جملة الاقتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أي كسب بضائع ، أو أن تكون وصلت إلى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل إلى قبول هذين الاقتراضين كما نميل إلى رأى « سوره » من كون دفينة مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية ، يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس ، تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية . ولا تعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يرجح انها كانت في أيام وجود العرب في سويسرة . وكما ان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون مافي كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر ما يوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من الحللي والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الاشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صناعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها ، فانهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأنخر ما كانت تشتمل عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضه مما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا خطوطاً عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه التصاوير من صنع الايدي ، بل كانت من عمل المعامل والانوال . وكانت مادة النسيج من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالطريق ، وكانت تدور بنخيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر ، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهباً .

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تنخاع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع ، وكان المعمل الذي يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز . وقد نقل المستشرق الشهير « دساسي » عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه « المنتخبات العربية » Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي :

« اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب ، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز . وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة المانيا عند تتويجهم ، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب ، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو « تيخسن » Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم ^(١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار ^(٢) لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الاسلامية » ثم ذكر دساسي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان . ثم قال :

« وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة نوتردام في باريز . وهي من أنفس النسيج وعايها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثاني فان الكونت رجار الأول النورماندي جاء الى ايطالية سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح فالابرة غزا صقلية ولم يزل يجاهد العرب الى أن استصفي هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلقه ابنه رجار الثاني فتوج ملكاً في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كات فتح فالابرة و نابولي وغيرها وكان ملكاً عظيماً ومات سنة ١١٥٤

أحد قبور دير « سان جرمان دي پراي » St - Germain - Des - Près وفيها كلتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemin في كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتي تنبئ معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest في رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد في قبر الامبراطور فريدريك الثاني (١) المتوفى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قيص على أكامه كتابة عربية . وذكر ذلك في كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ في نابولي يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurr في أحد تأليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر في زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة في خزانة الفاتيكان في رومة « انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير، حفيد الامبراطور فريدريك بربروس الذى اغتسل في نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين في الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريدريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فكفله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوا له لانه كان يرى فيه عدوا للبابوية ولاستقلال الأمة الايطالية . وكان يتقل على الطليان أن يكون فريدريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين في وقت واحد ، فلأجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الفارة على نابولى . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امراء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس الرابع هذا الحرم ، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثارت به الناس من كل ناحية ، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره في تاج امبراطورية المانيا ، وقتله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتشر عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات في « فلورنتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلم بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف في العربية باحث في عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتينى وقصائد بالاطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين ؛ وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطعة التي وجدت في دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان
عليها كتابة بالعربية « أطال الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزيغ » قد ترجمها
واذا بالترجمة هي دعاء للمدعو له باطالة حياة رجال ثقته وقومه . وهو تفسير غريب .
والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن
الكتابة هي بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطال الله أجله »
لأن « أطال الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كار يعض اختصار

الخاتمة

القصص على آثار العرب في وادي فاله من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جملتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وانهم يعرفون من سحناتهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حرياً بنا ، زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث ، أن نتوجه بنفسنا إلى هاتيك القرى التي يقال ان أهلها من أصل عربي ، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشاهدة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طيبينا في لوزان الدكتور جاك رو^(١) قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في العتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى في مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا الى ذلك المكان واعتصموا به .

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان

ففي ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت الى سان موريس وهي تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذي تنتسب اليه القسبة، وهو دير عريق في القدم بناه سيجموند أمير بورغونية في سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناوتهم الكتاب الذي معي من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا الى الراهب المتولى حفظ المكتبة واسمه طنولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاوزنا أطراف البحث الذي جئت الى هناك من أجله ، فقال لي انه لا يعهد في خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شيء يتعلق بغارة العرب على وادي فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة في الكتاب الذي يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الالمانى . ثم قال لي : الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهي على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلاً محامياً يقال له كوكو Coquoz يقدر أن يدلني على القرى التي يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفنى على معلومات قد يهمنى الاطلاع عليها . وكذلك في مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاله رجل يقال له الأب ليومير ، متخصص في الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاله ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحثت عن السيوكوكو ، وحدثته بالمقصود من زيارتي له ، فدلني على رجل يقال له فيليب فارقه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لي انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب في وادي فاله غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لي ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التي أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا في مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

في التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتيني هي البلدة التي يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالمسافرين بين سان برنار ومارتيني .

وكنت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع أن قرية ايزرابل هي التي يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هي من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذي يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التي في مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاله غزاة ، عابري سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلاً ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب في تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين في الكشكشة الى الغاية ولم أجد في كلامه ما ينقض شيئاً من الروايات التي أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادي فاله وأقاموا بها حقة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألماني لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلومتراً ، وهي في الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدتها قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يعيش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التي حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها ، كما يقال في مصر ، فدلوني على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته في الموضوع فقال لي انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شيء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير في تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة في الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلاً على إثارة من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لي : ان الجميع يسمعون أن أهالي هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربي ، وانه في الوادي الآخر الذي وراء وادي ايفولن والذي يقال له انيفيه Anniviers قري يقال أيضاً ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادي فاليه . وسألت هذا الرجل هل يعلم في ايفولين عائلة تعلم نفسها منحادرة من أصل عربي ، فأجابني : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربي في هذه القرية ، وأن في سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسري .

فغادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجات الى محطة ريد Rid التي منها يمكن الذهاب الى قرية ايزارابل ، فنزلت في ريد ، وسألت : هل يوجد طريق معبد الى ايزارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادتي بحسب اشارة الطبيب أن أمشي كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ايزارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ايزارابل انما هو تصعيد مستمر في عقبة كؤود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التي يجدها في أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذي ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقا ولا متعلقاً . ولاشك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيراً من ذلك المحل . والقرية في سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق النور ، والغابات تحف بها . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لي : ان العرب كانوا شنوا الغارة على وادي فاليه ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا في هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء في التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب في هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ايزارابل ، فربما كانت بقايا العرب في عدة قري .

فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسألته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجمونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي ، وليس فيها شيء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألت عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي : ان لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علما خاصاً ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هيئاتهم وسحنهم فرأيت فيهم سحناً لا تفرق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصاً تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقة الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون الافرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالباً على جميع قرى ذلك الوادي من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم الا بها . وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه ، ولا سيما في لهجة أهالي ايزارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثاً كهذا ليأخذ وقتاً طويلاً لم أكن أملاكه . فتركت ايزارابل مكتفياً بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادي لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك في أن لها أصلاً ولكن هذا الأصل قد اختلف بمرور الأيام

ثم ان أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني الى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة في جنيف ، وطالعت الفصل المذكور ، ونلصقت منه مايلي : في القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فر كسيناتوم .
(مقاطعة الفار في فرنسة) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦ .
اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة
٩١٣ كانوا في آكي Acque في بيامونت . وفي سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار
الكبير ، حسبما روى فليودار دورتر Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة .
قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب
الريتيية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Coire فاضطر الملك أوتون
الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التي لاشك فيها أن
العرب نزلوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه ، وذلك
سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت
ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك
ايطالية في حرب الماركيز بيرانجه الايفري Berenger D'ivree والملكة برته صاحبة
برغونية التي كانت طلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم
بحراسة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابي
Hermann de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا
يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال أنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا
مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيوشاتال ، واستطالوا
على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في
بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية
الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية .
وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وانما تحقق على
وجهه ليس فيه مرآة أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فموض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادي سواز Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بوترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادي سوازي عريية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين Balfrin ومونتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عريية . وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفاً بالانكليزية والافرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفي رأس هذه التأليف كتاب كلر Keller الذي ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الافرنسي بقى علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي ، ونوافق على رأي كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عريية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للالفاظ العريية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عريية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عريية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون الى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشاركة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبالا شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقاً مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأماكن فيها مياه . وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « موتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسا وإيطالية وسويسرة .
محصلاً مخصوصاً معولاً فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو البديء
المعبد والأول والآخر .

فتح المسلمين مالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالى جبال البيرانية من فرنسة وإيطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ إنما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . وقلما تجد منها حادثة إلا وهي متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها ، بل تعدى إلى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومي مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كالابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للأندلس قديماً وحديثاً . ولذلك أبقينا الكلام عليها إلى الكتاب الذي ننوي وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواده . وإنما بقيت جزيرة في البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافي إلا وهي جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل المالطي مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo و كومينو Comino و كومينوتو Cominotto و فلفولا Filfola و صخور أخرى تجاذبها ، جاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية المحررة بالفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة في مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiarkaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلوبيديا : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وإنما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجنيون على مالطة في القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين . وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضرورياً بعد استيلائهم على شمالي افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يخبرنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولا لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخيبيل الذي من جلته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الامالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « بينا » بدلا من أنا ، ويقلبون القاف همزة ، ويستعملون أحيانا نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والغين في مدينة مالطة المسماة « فاليت » وإنما توجد في جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية في اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذلك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصبة من المالطين اسمها « عقدة تالكتية تالطي » أي أي عصبة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً في نحو اللغة المالطية سمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك في سنة ١٩٢٤ وجاء في مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية . ثم إن هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالطي في سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الأصلي احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالطي الصافي

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلاً سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يعزروا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم في نشر اللغة الايطالية التي هي لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة في مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة

المالطية فليراجع كتب بونللي L , Bonelli وشتومة H. Stumme

وقد ترك المسلمون في مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من المسكوكات وعدداً كبيراً من الآثار الكتابية لاسيما كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة المسماة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبمبحث فيها المستشرقون مثل ايطالينسكي Italenski ولنسي Lance وآماري Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً في جزيرة غوزو ، وهي محفوظة في متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين في أثناء الحفريات التي وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ في محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهي محفوظة في متحف مربع رومانا Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمنديين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم في الاقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانتقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولاً عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقيين ، وكان يوثى بالوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها. وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع . وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيديا الاسلامية عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوي المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجوائب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بفرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين ألحقوه بأفريقية ، بالنظر الى المكان ، وبعضهم ألحقه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلاً ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتابيلي ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطيين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبعضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال في الصحاح : شعب الراس شأنه الذي يضم قبائله اه . وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اه

قلت : تأييداً لما استشهد به احمد فارس أقول : جاء في لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذي يضم قبائله . وفي الرأس أربع قبائل ، وأنشد .
فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم
الأمير لاقاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد في سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان
شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج
« سانت المو » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف
ما جاء في الانسيكلويدية الاسلامية من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة
١٠٩٠ اذ ينبغي من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون في أواسط القرن السادس عشر
للمسيح ، وانه كانت في أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لاقاليت
أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء في كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر
ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى مليته أو ميليسه في لغة اليونان النحل فحرف
المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس ،
وهو مشتق من ميليت في السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك في اللغة
الفينيقية أيضاً . قال : ومن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين اوميزوس واوفيدوس
ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها « الفيا كونس » هم أول من استوطنوا
هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور
وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعائة وخمسين سنة ، حتى
تغلب عليهم الاغريقيون ثم سموها للقرطاجنيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم
جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث في أيامهم
قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به ومن كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، في
موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد
الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساويون » وألحقوها

بمحاكمة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين اه . ملخصاً

قلت : يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندلس الأمة التي كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليسايريون فهم قوم بليساير Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستينيانوس صاحب بيزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا في ايطالية واستولى على صقلية وناپولى ورومة . ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة . ثم قال أحمد فارس :

ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغاب ، توفي سنة احدى وستين ومائتين ، وإنما لقب بالغرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد . روى انه بنى قصرأ في السهلين ، لصيد الغرائق أتفق فيه ثلاثين ألف دينار ، فكفى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . اه . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحا

ثم نقل صاحب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير زوجر النورماندى بعدها بمائتى سنة ، واسترد الجزيرة وألحقها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكومته وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفي أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوروبا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للاهلين في التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسيين لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة ،

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاً ومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين للمالطة كان من باب المصادقة أولى منه من الغالبة ، وعاملوا الأهلىن أولاً بالرفق والياسرة ، وقرروا سننهم وأحكامهم ، وامتزجوا بهم للغاية ، حتى كأن الجليلين واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم .

قال : أما لغة مالطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلىق بأخلاقهم والسلوك بسنتهم إنما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية .

قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فانهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين . والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضاً . اهـ

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطية ، وان كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال .
فكيف يحكم على الشيء وهو مجهول وكيف يقول : ان لغة المسلمين بقيت في أهل
مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود
كلمتين فيها ؟ وانما حمله على هذا بغضه وبغض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم
ليسوا منهم بل من الفينيقيين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وانما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها
من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسا وجميع البلدان التي احتلها العرب من
أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينياً ، فلما تقلص ظل العرب عنها
رجعت اليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية . فأما مالطة فلغتها الأصلية
لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد فتح
الاسلام لمالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتاً لم يزل له خروج المسلمين
من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها
الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل
العلم والتمدن ، كالذين كانوا في صقلية وغيرها ، فاني لم أجد قط فيما قرأت من كتب
الأدب والتواريخ قال المالطي . والسيوطي رحمه الله لم يفاد في كتاب الانساب الذي
سماه « لب الباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة اه
قلت : أتذكر أني قرأت في بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ،
اسماء رجال منسويين الى مالطة . وفي معجم ياقوت يذكر نقلاً عن السلفي : سمعت
أبا العباس أحمد بن طالوت البلسني بالشقر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي
بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها
أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا المصراع :
جارية ترمي الصنج فقال : بها النفوس تنهج

كأن من أحكمها الى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت أنها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بها هذه الجزيرة
المسماة مالطة الواقعة في بحر الروم ، فقد جاء في تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع
في التكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكنها بلدة بالأندلس كما نقله
الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين في
البحر ، يعظمها النصارى تعظيماً بالغاً وبها وكلاء عظامهم من كل الجهات . ولقد حكى لي
من أسر بها عن زخارفها ومثانة حصونها وتشديد أبراجها وما بها من عدة الحرب
ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بحرمة النبي عليه الصلاة والسلام . فأنت ترى
ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة
وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوتزو » من
أخوات مالطة فقال : ان اسمها جزيرة غورش وانها بالفرنجية كوتسو وان هذه اللفظة
يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر
ميلاً في عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفاً ، وجملة قراها ست ، ومدينتها
تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة . وبقول الجزيرة
وفاكيتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورش وكهونة كانت
في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقتها . اهـ

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله : رأيت جزيرة غورش غير مرة .
أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة الهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سماوا
الجزيرتين الاخرين كهونة ولفلة لصغرهما . الا أن أهلها ينطقون بها بالعين المعجمة
لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغما من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم
من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

سفر ، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن في لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح بالحاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللأجاص لنجاص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولكن يبدلون سينها زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم واراادة المزموم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً « وحلت » للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للتحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشيء اذا كسرتة وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورث ينطقون بالأحرف الحلقية على حقا الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهر ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول في الفعل بلفظة « سائر » وهي نظير قول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال المالطي : أنا ساير نساير فهي كقول الشامي أو المصري : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن ساير هذه كانت مستعملة في المغرب وقد نحتوها فبق منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلاً هو في حال الأكل سيأكل . وأحياناً يقلبونها تاء فيقولون تياً كل ، ويقولون في المغرب في مثل هذه الحالة كياً كل . وأظن الكاف هنا منحوتة من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلاً من أن يقول هو عمال يأكل تجده يقول « عمياكل » وفي بعض جهات من شمالي لبنان يقلبون الميم نونا فيقولون « عنياكل » .

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف إليه ، فيقولون مثلاً « الرجل تاليت » وذهب أحمد فارس الى أنها منجوتة من متاع ، قال : فان أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الاضافة ويتدثون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالمطين لا ينطقون بالعين اذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلاً تلا وطلا في طلع وقلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفاً أو همزة هو من أساليب العرب ، كما في تفصي وتفصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأ كأ وتكعكع ، وزقاء الدريك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع ، وبدأ وبدع ، والجبأ والجباع وغيرها ، حتى أنهم قلبوها متوسطة كما في تارض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : ان الهمزة والعين من يخرج واحد فلا عجب أن تأتي ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : أنهم في مالطة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المالمطين :

المحبوب تا قلبي سافر ليلى ونهارى نبيكح
جعلنلو بدموعى البحر وبالتنهيديات تا قلبي الريح
أى ليلى ونهارى نبيكيه . وابدال الهاء ناء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والمده والمدح ، وتاه وتاح ، الى آخره .

قال : ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحقها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعملية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تماركوا ، وزفن أى رقص ، وبوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقرر رأي تباعد من الأدناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يرجح أن أصل المالمطين من الغاربة . ولكنه في محل آخر قال : انه لا شك في كون اللغة المالمطية

عربية ولكنى لست أدري أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كتبا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيديا الافرنسية ، ولكن الألفاظ الغربية هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربية قال تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربية فى مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهياً لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفا بعد خلف ، وهؤلاء الانسكايز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تهياً لهم أن يعمموها عند المالطيين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عنه مغازى العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطنى فى تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، فى موضوع فتوحات العرب فى جنوبى أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شىء فى هذ الموضوع نجعله كالقلادة فى جيد تأليفنا هذا ، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، لفتح بلاد شمالى افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيحجر والى سببلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائدين البحرىين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك . تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاية شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسرون عليها وأول أمير شرع فى اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالي افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبض مصر ، وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدو ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاها في ذلك اسماعيل بن أبي المهاجر الذي تقلد امارة شمالي افريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبي أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافق ، ولم يعد إلا بعد أن أثنى في ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفي ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهاز أسطولا كبيرا جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري ، ففزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربي بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان في شمالي افريقية .

وفي سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهاز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمي لمنازلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت امارة الأسطول والجيوش في هذه المرة لقاضي القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سر كوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبع المعروف بفرغوسن . وبعد أن استقرت الأمور في البلاد المفتوحة قلد زيادة الله امارة ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال موالياً للجهاد حتى فتح بليرم و نابولي .

وفي ولاية أبي عقاب الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير في ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفي ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات في شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة .

وفي ولاية الأمير أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهاز الأسطول وأمر عليه أخاه وسره لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية

وفي عهد أبي الغرائق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة وفتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ، لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسا ، فواقمهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .

وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبى جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها

بشمالي افريقية .

وفي عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبي أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروقنص فاستنجدت فرنسا بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقاه الأسطول الافريقي في عرض البحر الرومي فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانهم والتجأت بقايا الأسطول الافريقي إلى بليم . لكن الجيوش الاسلامية كانت تتوغل في فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملكتم بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن هذه الفواجع ، فأعادوا فكرة حملتهم البحرية وحاولوا في هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبي أوربة وشمالي افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم .

وفي سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولاً عظيماً لتعقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في إيطاليا وجانب من فرنسا :

واستمر نجم الاسلام صاعداً في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة وأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآئمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يجن أحد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان :
لما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الاسلامية في أوروبا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوروبا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قره ب ؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب . ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوروبا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قره ب فخلع سنة ٣٠٣ و قتل بعد أن وصل الى المهديّة ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والعقد من المسلمين في دار الامارة ييليرم فكتبوا الى المهدي ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشاً لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاية والقضاة. وأن يبقى لهم الجيش يدرأون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبى أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصرهم شهورا ، وكانت البلاد ممتنعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التي أفزعت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمّنهم بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح والخيل وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبي راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الافحاش في الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفي عهد أبي القاسم بن عبيدالله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ ففضى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالي افريقية كان يفتخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية في قصر الامارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة ، فقال : إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة مايكفيك »

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهر في الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدى فاستولى عليها وبني له مدينة.

القاهرة . وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق وأخذ القاهرة عاصمة للملك واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعوب بالوحدة البربرية ، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوروبا بسرمان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافتهم سنة ٣٧٢ ، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسا . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوروبا أن ينهد لقتالها فتحرك اليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً . فما كان من الملك روجار النرماندي قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام في أوروبا وافريقية

وكان النرمانديون نزلوا من شمال فرنسا إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية في جنوب أوروبا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحف الهلالي التي سيرها اليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالي افريقية

ولم تقف أطماع النرمانديين على ازالة الحكم الاسلامي من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآمنة بافريقية ، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهديّة دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مراكب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة ، وحرقوا وخرّبوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة الف دينار وما اتهموه من الاموال وسبوه من النساء والذراري .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذي لحق الدولة من فعل الزمندان ورد ما فقدته من الأقطار
الواسعة في أوربا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين المتونى
صاحب العدوتين أن ينهد لقتال الزمندان ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية ،
وكان بقيادة أبى عبدالله ميمون ، فأئخن فيها قتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها
بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى . ولم تخمد هذه الكارثة هم الزماندين وتعمد
بهم عن استئناف حملتهم على المهديّة ، فأعادوا الكرة عليها في أساطيلهم أواخر
جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين في كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى
أيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة
عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن
متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهديّة سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج
منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن العز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر
بنى مزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهديّة قاعدة لحركتهم الحربية في شمالي
افريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التي استولوا عليها ، وقد مكثوا بها
الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجده
لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عربية

على القبور الاسلامية في مالطة

بعد ان اتمنا كتابنا المتضمن غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسي) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة في الانسيكلوبيديا الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه في رومة في هذه الايام الاخيرة وتباحثنا في تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاجبنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التى وجدت على القبور الاسلامية في مالطة والتي جمعها ايطورى روسي وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها في الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها في رسالته آماما للفائدة

ومما جاء في صدر هذه الرسالة ان زول العرب في مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة في سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من المعلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اي ٨٣٥ - ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلا بد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ - ٨٧٠ للمسيح

اما تاريخ استخلاص مالطة من ايدي المسلمين فيذكر ان وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزنطية . ولكن مما لا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع المسحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحو من مئتي سنة الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آماري Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت في القابر الاسلامية في مالطة ونقلها كما وجدناها في الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليماً لله العزة
والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم في رسول الله اسوة حسنة هذا قبر ميمونة
بنت حسان بن علي الهذلي عرف ابن السوسي | توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس
السادس عشر | من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة | وهي تشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل في الارض من باقى الموت اخرجنى قصراً فيا اسنى
او دافع الموت اولموت من راقى لم ينجنى منه ابوابى واغلا قى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل محصا على وما خلفته باقى
يامن رأى القبر انى قد بليت به والترب غبر أجفانى و | آما قى
فى | مضجعى | ومقامى فى البلا | عبر وفى | نشورى | اذا ما جئت خلاقى
| اخى فجد | وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم (. . .)
توفى . . . يوم الأربعاء ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (. . .)
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يجب له (. . .)
(. . .) محمد وآله وسلم تسليماً ان ربكم الله

(. . .) ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر
والنجوم مسخرات
بأمره الا له (؟)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً فاز

(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم) م يوم القيامة فمن زحرج عن النار
بوا دخل الجنة فقد

وما الحيات الدنيا الا متاع الغرور هاذا قبر الشيخ المرحو (م . . .)

توفى رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعين (ن . . .)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد . . . توفي يوم الثلاثاء في ذي الحجة سنة
ثلاث و . . .

(. . .) الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(. . .)

(. . .) العلي العظيم لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالطاغوت (. . .)

(. . .) (لقد جاءكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله الا هو عليه . . .)
(. . .) من شعبان سنة ستة واربعين وخمسة رحمة الله وبرضوانه وصلى الله على
محمد (. . .)

(. . . أجم) وركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما
الحيات (. . .)

(. . .) في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (. . .)

كل نفس (. . .)

سلام على أهل (القبور . . .)

... عند /ه الا باذنه يعلم ما بين (. . .)

... لمطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الرحمن (. . .)

هذا قبر (. . .)

(. . . زح) رج عن النار (. . .)

(. . .) لا متاع الغرور

... (الرحيم) هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عروة (ة)
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
... الله ...

واتما تو (فون أجوركم ...)

بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (١) براهم الصمطي

بسم الله الرحمن الرحيم

... والح ...

توفى يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... وخمسة

بسم الله الرحمن الرحيم (...)

... لله الله (...)

بسم الله الر (حمن الرحيم ..)

... النار وادخل الجنة ...

عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

لا اله

الا الله

محمد

سول الله

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو الحى القيوم (...)

أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا (...)

(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع القرور

(... شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويابس
(... صلى الله عليه وسلم وآله وسلم تسليما إن... (...)
(...)... الإله... (...)
(... أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)
(... و) لانوم له مافي السموات وما في الأرض (...)
سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس

هذا قبر ؟

... همد

العزيز ...

ورحم الله من

دعاه بالرحمة

(تم والحمد لله في المبدأ والنهاية)

- ٨٥ (التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور علي ناصف
 مجلد بالقماش في خمسة مجلدات وهذا الثمن مدة الاشتراك فقط)
- ١٠ أفضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبي
- ١٥ تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد بك الخضري
- ٢٠ محاضرات الدولة العباسية » »
- ٣ غوث العباد ببيان الرشاد تأليف الشيخ مصطفى أنى سيف الحامى
- ٥ دفع شبهه من شبهه وعمردون نسب ذلك الى الامام أحمد فى الرد على ابن تيمية
- ٨٠ شرح البهجة لشيخ الاسلام زكريا الانصارى فى خمسة أجزاء
- ٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافى
- ١٠ ألفية السيوطى فى علم الحديث مع شرح واف لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر
- ٢ ألفية السيوطى فى النحو للامام جلال الدين السيوطى
- ٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية للمخضوب
- ١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى مجلد بالقماش
- ٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم لمجلد بالقماش خير مرشد للآيات
- ٧ (بهجة الحاوى وبهامشه التيسير فى نظم متن التحرير . والتدريب فى نظم غاية
 التقريب للمعري نطى مجزع)

أحسن القصص

- ٥ مختصر قصص الأنبياء
- ٨ مختصر أولى العزم من الرسل : نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد عليهم الصلاة والسلام
- ٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

- مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين
- مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

فهرست الكتاب

الصفحة	
٤	المقدمة
٥	ملحق بالمقدمة
٧	كلمة بين يدي الرحلة لتتبع الآثار العربية في الاقطار الغربية
١١	الكلام على طلوزة وقرقشونة
١٣	طلوزة
١٤	قرقشونة
	مبدأ غارات العرب على فرنسة وما اعتمد عليه المؤلف من
١٤	الروايات عنها
٢٩	خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد
٤٧	الولادة على الأندلس بعد موسى بن نصير
٥٠	رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة
٦٠	حرب القيسية والبيمانية
٦٤	الكلام على مدينة أربونة
٧١	السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسة
٩٣	واقعة بلاط الشهداء

الصفحة

- غازات العرب على فرنسا ، من بعد جلائهم عن أربونة
الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ١١٨٩ م ١١٤
- أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية ١٣٩
- زول العرب في بروفانس وغازاتهم من هناك على سافواى
وبييمونت وسويسرة الى دور اجلائهم عن فرنسا ١٦٠
- الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها
كتاب غازات العرب على سويسرة في أواسط القرن
العاشر - تأليف الدكتور فرديناند كار ٢٤٤
- آثار كتابة في كنيسة القديس بطرس مونتجو ٢٦٢
- أسماء عربية في البلاد ٢٦٤
- أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك ٢٦٦
- المسكوكات ٢٦٩
- الملابس العربية ٢٧٢
- القصص على آثار العرب في وادى فاله من سويسرة ٢٧٦
- فتح المسلمين لمالطة ٢٨٤
- مغازى العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط ٢٩٦
- كتابات عربية على القبور الاسلامية في مالطة ٣٠٣